

سماحة البيع والشراء

ما من إنسان إلا وتربطه بالناس علاقة بيع أو شراء . إنها المعاملة اليومية التي تجري عليها حياة الناس وأرزاقهم ، وتربط بها حاجاتهم ومعايشهم . ولهذا حرص الدين على أن يبين للناس المبادئ التي تقوم عليها هذه العلاقة الاجتماعية ، والآداب التي يجب أن يلتزمها الناس في معاملاتهم المالية ، ليكون ذلك سبيلا إلى التعاون والمودة والثقة بين الناس .

يقول رسول الله ﷺ : « إن الله يحب سمحَ البيع ، سمحَ الشراء ، سمحَ القضاء » .

فمن كان سمحاً في بيعه ، سمحاً في شرائه ، سمحاً في قضائه . . كان جديراً بحب الله له . ومن أحبه الله نادى الملائكة في الناس : أن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فتقع محبته في القلوب . .

والسماحة في البيع أن يتخلق البائع بعدة خصال . . . ولعل أولى هذه الخصال وأولها هي أن يوفى الكيل والميزان . مادام قد تقاضى الثمن على وزن أو كيل معلوم .

يقول الله تبارك وتعالى :

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ) (١) .

ويقول تعالى :

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) (٢) .

ويقول تعالى :

(فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) (٣) .

وتوعده الله من يخالف ذلك بالويل والعذاب الشديد فقال :

(وَيَلُ لِّلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ .

وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) (٤) .

ومن خصال السماحة في البيع ألا يحتكر التاجر سلعته فيتحكم في سعرها ويزيد في ثمنها كما يريد ، مستغلاً في ذلك حاجة الناس إلى الشراء . وحسب البائع من الربح ما يجزيه ، وما لا يرهق الناس ، وفيهم الغنى والفقير . إن البائع الذي يكتنى

(١) الآية ٣٥ سورة الإسراء .

(٢) الآية ٩ سورة الرحمن .

(٣) الآية ٨٥ سورة الأعراف .

(٤) الآيات ١ و ٢ و ٣ سورة المطففين .

بالريح القليل محتسباً ما زاد على ذلك عند الله ، إنما يدخر عند الله رصيماً ينمو
أضعافاً مضاعفة .

ولقد ضرب عثمان بن عفان - رضى الله عنه - مثلاً عالياً للسماحة في هذا المعنى
يذهب إلى أبعد مما يخاطر على بال . . فقد أصاب الناس في عهد أبي بكر - رضى
الله عنه - قحط شديد ، فذهبوا إليه وقالوا : يا خليفة رسول الله إن السماء لم تمطر
والأرض لم تنبت وقد توقع الناس الهلاك . . فماذا نصنع ؟

قال : انصرفوا واصبروا . . فلما أرجو ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم .
فلما كان آخر النهار ، وردت الأنبياء بأن عيراً لعثمان بن عفان قد قدمت من
الشام وتصبح في المدينة . فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هي ألف بعير موسوقة
براً وزيتاً وزيبياً ، فأناخت القافلة عند باب عثمان ، فلما جعل أحبالها في داره جاء
التجار وجرى بينه وبينهم حديث عجيب . . .

قال عثمان للتجار وقد تحلقوا حوله : ما تريدون ؟
قالوا : إنك لتعلم ما نريد . . بعنا من هذا الذى وصل إليك ، فإنك تعلم
حاجة الناس إليه .

فقال عثمان : حباً وكرامة ، كم تريجونى على شراى ؟
قالوا : الدرهم درهمين . . قال : أعطيت زيادة على هذا . . .
قالوا : أربعة دراهم . قال : أعطيت أكثر .
قالوا : تريحك خمسة . قال : أعطيت أكثر .
فقالوا : ما فى المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا أحد إليك ، فمن الذى أعطاك
أكثر مما أعطينا ؟

قال : إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، فهل عندكم زيادة ؟

قالوا : لا . فقال : فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة على
المساكين وفقراء المسلمين !

وإن من السباحة في البيع ، أن يكون البائع صادقاً في عرضه سلعته ، فلا يظهر
منها الجانب الطيب ويخفى تحته الجانب المعيب ، أو يبيع السلعة المعيبة دون أن ينبه
المشتري إلى ما فيها من عيب حتى يكون على بينة من أمره . ذلك من الغش الذي
نهى عنه الرسول ﷺ حيث قال : « من غش فليس منا » .

ولقد قال الرسول ﷺ : « المتبايعان بالخيار مالم يتفرقا . فإن صدقا وبينا بورك
في بيعهما ، وإن كذبا وكما فعسى أن يربحا ربحاً وبمحقا بركة بيعهما » .
ومن آداب البيع ألا يتخذ البائع من الحلف بالله وسيلة لترويج سلعته بالثمن
الذي يريد ، قال ﷺ : « الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة » أي أن الحلف قد
تؤدي إلى رواج السلعة ونفادها ، ولكنها تؤدي كذلك إلى ضياع البركة فيما عاد على
صاحبها من ربح .

ولقد أقسم رجل بالله أنه يبيع سلعته بالثمن المفروض لا يزيد عليه شيئاً وكان
كاذباً فيما يقول ، فنزل قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ
لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١) .

هذا عن السباحة في البيع ، فإذا عن السباحة في الشراء ؟
إن سمح الشراء هو الذي يشتري السلعة بسعرها المناسب ، والذي لا يسرف في

(١) الآية ٧٧ سورة آل عمران .

المساومة ، وإذا عرضت عليه سلعة لم يستغل حاجة صاحبها فيبخسه ثمنها .
وهو الذي لا يزيد على شراء أخيه ، فإن رأى رجلاً يشتري سلعة تركه حتى يتم
الشراء أو ينصرف دون ذلك . فلا يدخل بين البائع والمشتري بثمن أكبر يعرضه
ليستأثر بالسلعة لنفسه دون صاحبه ، أو يرفع ثمن السلعة بغير حق .

أما السماحة في القضاء فهي مطلوبة من البائع والمشتري على السواء ، فإذا
اشترت شيئاً بدين إلى أجل معلوم وجب أن تؤدي الدين في موعده فلا تماطل
صاحب الدين في القضاء ولا تخلف موعدك معه . وكما ذهبت إليه تطلب السلعة
التي تحتاج إليها وليس معك ثمنها فأعطاك إياها ولم يحسبها عنك ، فكذلك يجب
عليك أن تعود إليه لتؤدي له دينه وتقضى له حقه .

وعلى البائع أو المقرض كذلك أن يكون سمح القضاء عند استيفاء دينه . فإذا
حل موعد أداء الدين ، ولم يؤد إليه المدين حقه نظراً فيما يقدمه إليه من أعذار ، فإن
كان صادقاً أمهله حتى يدبر أمره ويوفى بدينه . يقول الله تعالى :

(وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١) .

وقال ﷺ : « من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله عز وجل في ظله يوم

لا ظل إلا ظله » .

وإن من السماحة أن يلتزم الإنسان في طلب ما له من دين الأسلوب اللين في

القول والإسرار في الطلب ، فلا يعنف في اقتضاء الدين أو يفضح صاحبه بين

الناس .

(١) الآية ٢٨٠ سورة البقرة .

جاء يهودى إلى رسول الله ﷺ يتقاضاه ديناً عليه ، فأغلق اليهودى فى الطلب وقال للرسول : إنكم يا بنى عبد المطلب مظل . فغضب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وهم أن يبطش باليهودى لجرأته على رسول الله ، ولكن الرسول ﷺ نهاه عن ذلك وقال له : كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر . . تأمره بحسن التقاضى ، وتأمرنى بحسن القضاء . . وكان هذا الدين لم يحل موعده ، ومع ذلك قال الرسول ﷺ لعمر ما قال ، وزاد على ذلك بأن أمره أن يعطى اليهودى شيئاً من المال جزاء ما روعه .

كيف تكسب ود أخيك ؟

إن كسب المودة واسمالة القلوب ، من القيم الدينية التي تدعم روابط المجتمع ، وتشيع المحبة والتعاون بين الناس .

ولقد قال رسول الله ﷺ :

« ثلاث يصفين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه » .

وبذلك أوجز الرسول أسباب المودة الصافية في ثلاث خصال ، كل منها سهل يسير ، وهو مع ذلك عميق الأثر في النفوس .

أولها أن تسلم على أخيك إذا لقيته ، هذه التحية الطيبة التي تصنى لك وده ، وتسكب في نفسه الحب ، وتشيع حوله الطمأنينة والسلام . ولهذا كانت كلمة السلام هي أفضل تحية للمؤمنين حين يلقون ربهم يوم القيامة . قال الله تعالى :

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) (١)

وبهذه التحية تستقبلهم الملائكة يوم الفرع الأكبر :

(يَقُولُونَ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٢)

وعندما يدخلون الجنة :

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا) (٣)

كلمة طيبة تصنى لك ود أخيك ، أن تقول له حين تلقاه : السلام عليكم ورحمة الله ، فيرد لك هذه التحية يمثلها أو أحسن منها . .

وللسلام آداب تزيد من جمال التحية وأثرها في النفوس : منها أن يسلم القليل على الكثير ، والمار على القاعد ، والراكب على المشى ، والصغير على الكبير ، ولقد مر أنس بن مالك - رضى الله عنه - على صبيان فسلم عليهم ، وقال : كان النبي ﷺ يفعل ذلك .

وسئل رسول الله ﷺ : أى الإسلام خير؟ قال : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » . ذلك أن إفشاء السلام لا ينبغي أن يقتصر على من تعرف من الناس ، لأنه إذا كان أثره فيمن تعرف أن يصنى لك وده ، فإنه

(١) الآية ٤٤ سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٣٢ سورة النحل .

(٣) الآيتان ٢٥ و ٢٦ سورة الواقعة .

عند من لم تعرف يفتح لك قلبه ويكون سبباً من أسباب التعرف والتآلف ، وسبيلاً إلى تكوين المجتمع الذي يسوده التعاطف والمودة والسلام .

ولقد يكون بين الإنسان وأخيه جفوة أو خصام ، وهنا تظهر قوة الخلق وسماحة النفس والتفاضل بين الناس . يقول الرسول ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصد هذا ، ويصد هذا ، وخيرهما الذي يبدأ السلام » . ذلك لأن البادئ بالسلام أقوى إرادة وأصفي نفساً ، إنه قد تغلب على أسباب الخصومة ودواعي القطيعة ، فقابل الإساءة بالإحسان إن كان قد أسىء إليه ، أو سعى إلى طلب الصفح إن كان هو الذي أساء إلى صاحبه . وعن طريق المبادأة بالتحية يلتقي الاثنان في ظل المودة والسلام .

أما الحصلة الثانية التي أوصى بها الرسول ﷺ فهي أن توسع لأخيك في المجلس . والله سبحانه وتعالى يقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ) (١) .

إن من أسباب المودة أن تفسح لأخيك مكاناً إلى جوارك ، فلا تستأثر بالجلوس وهو واقف ، أو تستأثر بالجلوس على فراش وتتركه جالساً على الأرض . إن ذلك ليس من الخلق الاجتماعي في شيء . . .

وتطالعنا هذه الصورة في مجتمعنا الحاضر متمثلة في مشكلة المواصلات وما يعانیه الناس وبخاصة الشيوخ والضعفة والنساء من عنق وإرهاق . الأمر الذي يجعل التفسح في المجالس واجباً يقتضيه تكافل المجتمع في مواجهة هذه المشكلة . قد يكون هذا الواقف في المركبة البعامة مثلاً شيخاً كبيراً أو سيدة تحمل طفلها ،

(١) الآية ١١ سورة المجادلة .

أو فتاة تتعرض لملاعب الزحام ، فماذا يضريك لو أفسحت إلى جانبك مكاناً تجلس فيه هذه السيدة أو الفتاة ، أو يستريح فيه هذا الشيخ الكبير؟
قد تقول إن المقعد مخصص لثلاثة ، نعم إنه كذلك . ولكنه يتسع لأربعة ولا يضيق بهم إذا ما تفسحوا في مجلسهم وانضم بعضهم إلى بعض .
وهل يكون هذا هو منطقتك لو كنت أنت الواقف تعاني من رجة المركبة وشدة الزحام . وغيرك يجلس وقد تمدد في المكان طويلاً وعرضاً وهو منتفخ الجسم والأوداج؟

في مثل هذا الموقف يتمثل حديث الرسول ﷺ على أروع صورة وأجمل توجيه حين يحث على أن يوسع الإنسان لأخيه في المجلس ، وما يحدثه ذلك من أثر طيب في النفوس ، يشيع المودة ويرسي تقاليد التعاطف والتعاون بين الناس .
وما تفعله أنت مع غيرك اليوم حين تفسح له مكاناً إلى جوارك ، بروح عطف و نفس كريمة ، يفعله غيرك معك اليوم أو غداً ، وقد يفعله مع أيك الشيخ أو أمك أو أختك ، فيرتد إليك جميلك ، وتجنبي ثمار معروفك .

ولقد قال الرسول ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »
وهناك مرتبة أعلى من ذلك لمن أراد ، هي مرتبة الإيثار ، وقد أثنى الله على قوم فقال :

(وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ^(١)) ، وَمَنْ
يُوقَ شُحَّ ^(٢) نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(٣) .

(١) حاجة .

(٢) يحفظ من البخل .

(٣) الآية ٩ سورة الحشر .

ومع ذلك فهل كثير على الشاب القوى مثلاً أن يتخلى عن مكانه للشيخ الكبير؟ إنها قد تكون دقائق وقد تكون ساعة أو بعض ساعة ، فماذا لو آثر هذا الشيخ الكبير بمكانه ، وهو منه في مقام الوالد أو الجد؟
وصدق الله تعالى إذ يقول :

(وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

ذلك لأن الشح داء يصيب النفس بالجذب والغلظة . والشح لا يكون في المال وحده ، ولكنه كذلك يكون في الخلق والعاطفة . إن من الناس من يبخل بالكلمة الطيبة ، أو بالبسمة الرقيقة ، أو بالمجاملة التي لا تكلفه شيئاً أو لا تكلفه إلا اليسير ، لأن نفسه مريضة بداء الشح ، ولو تخلص من هذا الداء لطابت نفسه ولذاق لذة العطاء والسخاء ولو بالكلمة الطيبة أو البسمة الرقيقة .

وأما نائلة الخصال التي تصنى لك ود أخيك ، فهي أن تدعوه بأحب أسمائه إليه . إن الرسول ﷺ يتحرى لك الأسباب التي تكسب بها قلب أخيك ، وتقوى بها رابطة المحبة بينك وبينه ، ومن هذه الأسباب أن تدعوه بأحب أسمائه إليه . فلا تناديه بصفة تذكره بعاهة فيه ، أو بلقب يكرهه . إن ذلك يؤدي شعوره ويثير في نفسه الحقد والمرارة والكراهية لك وللمجتمع .

وإنما يجب أن تدعوه بما يشعره بالمودة كأن تناديه : يا أبا فلان ، إثارة لعاطفة الأبوة الحبيبة إلى نفسه ، أو تدعوه بما يشعره بالتكريم كأن تناديه بلقبه العلمي أو الفني ، أو بما ينتظره من هذه الألقاب ، تقديراً لمكانته ، وإشادة بفضله ، أو إثارة لمشاعر الطموح وحفزاً للهمة عند من لا يزالون على الطريق .

إنها التحية الطيبة التي تلتقي بها أخاك فيفتح لك قلبه ، والمجاملة الكريمة تفسح له بها مكاناً إلى جوارك فينفسح بينكما مجال الحب والإخاء ، والنداء الجميل تعزف به على سمعه أحب الأسماء .

أحب الأعمال بعد الفرائض

« أحب الأعمال إلى الله بعد أداء الفرائض ، إدخال السرور على المسلم » .
 وهذا الحديث النبوي يبدأ بالإشارة إلى الفرائض الدينية ، ويقول إن أداء هذه
 الفرائض أحب الأعمال إلى الله ، وذلك لأن هذه الفرائض التي شرعها الله إنما
 تستهدف تحقيق معنى وجود الإنسان في هذه الحياة ، والله تبارك وتعالى يقول :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (١) .

كما تستهدف هذه الفرائض توثيق صلة الإنسان بربه وتصحيح اتجاهه إلى الله ،
 وتقنين سلوكه في الحياة ، وبذلك يكون له ميزانه في نفسه يعرف به ما يحل
 وما يحرم ، ويكون رقيباً على نفسه في كل ما يقول أو يعمل .

(١) الآية ٥٦ سورة الذاريات .

وكذلك فإن هذه الفرائض تجمع من الأعمال الصالحة ، وتحقق من الآثار الطيبة في سلوك الإنسان وحركة المجتمع أعظم قدر وأوفى نصيب ، إنها تضع للإنسان منهجاً تصلح به حياته ، وتقوم علاقته بالله وبالناس على أسس قوية ودعائم راسخة من الإخلاص والتعاون على البر والتقوى . وبذلك تتحقق سعادة الفرد وسعادة المجتمع الذي يعيش فيه .

فما من فريضة يتعبد بها الإنسان لله تعالى إلا عادت على الإنسان ثمرتها ، وكان هو المقصود بالإفادة منها ، فإن الله تعالى غنى على العالمين ، لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه . يقول الله تبارك وتعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ) (١) .

ولهذا كان أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله ، وأرفعها منزلة عنده ، وأجدرها بالرضا والقبول ، ثم تجيء بعد ذلك أعمال لها المنزلة الكبرى والثواب العظيم والميزة على سائر الأعمال ، ومنها في هذا الحديث النبوي الشريف : إدخال السرور على المسلم .

وذلك لأن الإسلام يحتفل بالحياة ، ويحرص على أن يوفر للناس فيها أسباب السعادة ، وأن يتيح لهم الاستمتاع بزيينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وأن يدخل على أنفسهم البهجة والسرور في غير مأثم ولا خروج على حدود القصد والاعتدال .

ولما كانت الحياة متعددة الجوانب ، فيها ما يبعث على البهجة والسرور ، وفيها ما يثير الحزن والقلق ، فإن الإنسان في حياته معرض لهذا وذاك ، وعلى قدر تماسكه

(١) الآية ١٥ سورة الجاثية .

ونظرة الشاملة للأمور تكون مواجهته لما يصيبه من هموم الحياة ، على أن الإنسان لا يستطيع وحده أن يواجه هذه الهموم ، فهو في حاجة إلى من يواسيه في محنته ، ويشجعه إذا فترت همته ، ويبعث في نفسه نور الأمل إذا أظلمت عليه ظلمات اليأس ، ويرد إلى قلبه خفقات السعادة ، وإلى وجهه طلاقة الفرح والسرور ، ولهذا كان إدخال السرور على المسلم عملاً ترقى مرتبته إلى هذا المستوى العالى بعد أداء الفرائض وهى أعظم الأعمال وأحبها إلى الله .

ومن ذلك أن المسلم قد يخطئ ، فتزل قدمه وينحرف عن سواء السبيل ، كأن يقترف ذنباً أو يرتكب معصية ، وعندما يستيقظ ضميره يستشعر فداحة الذنب وسوء العاقبة ، فتسود الدنيا فى عينيه ، ويستولى اليأس على قلبه ، وقد يحمله ذلك على الانغماس فى الخطايا والذنوب مادام لا يجد أمامه طريقاً للنجاة ولا يتشوف بصيصاً من الأمل .

فما هو الواجب عليك نحو أخيك المسلم وهو يعانى هذه المحنة ويتعرض لهذا البلاء ؟ هل تفتح عليه أبواب جهنم وتصب فى أذنيه وقلبه آيات العذاب والوعيد ، وبذلك تزيد عذاباً على عذابه وتلقيه فى غيابات اليأس والقنوط . أم تفتح أمامه أبواب الجنة وتسكب فى روحه آيات الرحمة والمغفرة ، وبذلك تدخل السرور على نفسه ، وتنقذه من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، ومن لجة الخطيئة إلى شاطئ التوبة ، ومن ظلام اليأس إلى نور الأمل والرجاء ؟

يقول الله تبارك وتعالى :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا ^(١) مِنْ

(١) تياسوا .

رَاحِئَةَ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَرِيئَةً . إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ (١)

إنها دعوة مضققة إلى ساحة الرحمة والعترة ، لكن من يستشعر الندم ويقبل
على الله بقلب سليم .

ويقول الرسول ﷺ : لله فرح بتوبة عبد من رجل نزل منزلاً وبه مهبكة
ومعه راحته عليها طعامه وشرابه . فوضع رأسه فذم نومة . فاستيقظ وقد ذهبت
راحته . فضربها . حتى إذا شدد عليه الحر والعطش قال : أرجع إلى مكاني الذي
كنت فيه فأنام حتى أموت . ثم رفع رأسه فإذا راحته عنده عليها زاده . طعامه
وشرابه . فإله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحتته وزاده .

وتلك بشرى من الرسول ﷺ تغمر القلب بالسرور وتملأ النفس بهجة
وسعادة ، تحملها إلى أخيك المسلم وهو يعافى آلام محنته . ويتقلب على أشواك
حيرته . فإذا هو بهذه البشرى سعيد كل السعادة . كأنما انفتح له بها باب من
أبواب الجنة . وقد كان على شفا حفرة من النار .

وصورة أخرى من صور إدخال السرور على المسلم ، كان أمير المؤمنين عمر
ابن الخطاب - رضي الله عنه - في جولة خلال الديار متنكراً تحت جنح الظلام ،
ليتعرف عن كئيب أحوال المسلمين ، فترامى إلى سمعه أصوات صبية يبكون ، فطرق
الباب فإذا امرأة تفتح له ، فيسلم عليها ثم يقول :

- ما بال هؤلاء الصبية يبكون ؟

فتجيب : إنهم جياع وليس عندي ما أطعمهم به .

فيقول : وما هذا الذي توقدين عليه في القدر ؟

(١) الآية ٥٣ سورة الزمر .

فتجيب : ماء وحصى . . أعللهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر .

وينزع عمر من هذه الكلمة فيقول : وما يدري عمر بكم ياأختاه ؟

فتجيب المرأة : عجياً . . يتولى أمرنا ويغفل عنا !

وبهذه الكلمات تحولت النار التي تحت القدر إلى قلب عمر ، وتحولت دموع

الأطفال الجياع كذلك إلى قلبه ، لا لتطفى هذه النار ولكن لتزيدها اشتعالاً . .

فعاد مسرعاً إلى بيت المال . وحمل على كتفه ما استطاع من دقيق وسمن وعسل ،

ورجع إلى المرأة فجلس يساعدها في إعداد الطعام ، وإن الدخان ليتخلل لحبته وهو

يعالج النار حتى نضج الطعام ، ولم يغادر الدار إلا بعد أن أكل الصبية حتى

شبعوا ، ثم أخذوا بعد شبعهم يتضحكون .

وقالت المرأة لهذا الطارق الكريم وهي تودعه : جزاك الله خيرًا . أنت أولى بهذا

الأمر من عمر .

وابتسم أمير المؤمنين ، فقد ردت إليه هذه المرأة اعتباره وهي لا تدري ،

وكانت ابتسامته كذلك انعكاساً للسرور الذي أدخله على قلب هذه المرأة الفقيرة

وأطفالها الجياع . وما أشرق الصباح حتى كان لهذه الأسرة راتب مقرر من بيت

المال .

هذا ، وإن الأبواب التي يدخل منها السرور على المسلم لكثيرة ، وإنها لميسرة

لكل من أراد . . أن تلقى أخاك المسلم بوجه طلق ، أن تحمل إليه بشرى تشرح

صدره ، أن تسعى في قضاء حاجته . أن تعود في مرضه ، أن تتفقده إذا غاب

عنك ، أن تهدي إليه وتتقبل هديته . . كل هذه أبواب يدخل منها السرور على

المسلم ، فيبش لها قلبه ، وينشرح صدره ، وتبهج نفسه ، وتطيب روحه ، وتخف

عنه أثقال الحياة وهموم العيش ، ويستشعر الرضا والسعادة في مجتمع يتبادل أفراده

هذه المعاني الجميلة والمشاعر الكريمة .

قول معروف . . .

قال رسول الله ﷺ :

« لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .
 وفي هذا الحديث الشريف تعميق لمعنى المعروف في النفوس ، بحيث يكون
 طبيعة للإنسان وسجية من سجايها ، يجرى منه في سماحة ويسر لا تكلف فيه
 ولا معاناة . ذلك لأن المعروف حركة نفسية قبل أن يكون عملاً مادياً ، وقيمته في
 دوافعه وأهدافه لا في حجمه وصورته .

يقول الله تبارك وتعالى :

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى) (١)

(١) الآية ٢٦٣ سورة البقرة .

فإذا استفر هذا المعنى في النفوس لم يثقل عليها أداء المعروف لأنه لن يكفها ما لا تطيق . بل إنه بذلك يساعدها على أن يكون أداء المعروف حركة ضييعية ووظيفة سلوكية تؤديها استجابة للفترة السليمة . كما تؤدي الزهرة وظيفتها حين تمتع الأنظار بألوانها المبهجة وتنعش النفوس بعطرها الفواح .

ولهذا نهى الرسول ﷺ عن أن يتكلف الإنسان لضيفه فيما يقدم له من طعام . لأن التكلف لا تطيقه النفوس ولا صبرها على احتمالها إذا ما تكررت أسبابه . وبذلك يضيق الإنسان بضيفه ويقع التباعد والتقاطع بين الناس . والمعروف باب من أبواب الخير يسره الله لعباده . وإن منه بذل الصدقة بمعناها الإنساني الواسع العميق ، الذي لا يقتصر على الغنى دون الفقير ، ولا على القادر دون العاجز ، ولا على القوى دون الضعيف . بل الجميع ميسرة أمامهم أبواب هذا الخير ، متاحة لهم أسبابه .

يقول رسول الله ﷺ :

« ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس . قيل يارسول الله ، من أين لنا صدقة نتصدق بها ؟ فقال : إن أبواب الخير لكثيرة : التسييح والتحميد ، والتهليل والتكبير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتميط^(١) الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، وتهدى الأعمى ، وتدل المستدل عن حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف . . فهذا كله صدقة منك على نفسك . وتبسمك في وجه أخيك صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة » .

وهذا المعنى يعطى الصدقة مفهوماً يحقق كرامة الإنسان ، ويشعره العزة والقدرة

(١) تبعد .

على العضء . وأنه إن كانت تنقصه بعض الأسباب . فإنه يملك أسباباً أخرى يفيد بها المجتمع ويرد له بها ما عليه من دين . فليست الصدقة إذن ، وليس إذن المعروف . أمراً يملكه الغنى دون الفقير ويجود به عليه . أو يستأثر به القوي ويتفضل به على الضعيف . ولكن أفراد المجتمع فيه سواء . كل منهم يستطيع أن يعطى وأن يكون صاحب اليد العليا . وأن تكون له مواقف إيجابية نافعة بين الناس ، إذا ما طرق أبواب الخير والمعروف وإنما لكثيرة . . وهل يعجز إنسان - مثلاً - مهياً يكن أمره عن أن يميظ الأذى عن الطريق . أو أن يذل المستدل عن حاجته . أو أن يلقي أخاه بوجه طلق ؟

إن إماطة الأذى عن الطريق وهى عمل يسير ، قد تحفظ على إنسان حياته ، أو تحول دون تعرضه لأذى شديد . وكم من حوادث أليمة تقع بسبب عثرة قدم ، فهل يسهين الإنسان بالحجر أو العظم أو قشرة الموز يرفعها عن الطريق ، فينقذ حياة أو يجنب إنساناً مزالق الخطر ، وهل يحقر هذا المعروف لأنه لم يكلفه شيئاً من الجهد والمال ؟

وأن تلقى أخاك بكلمة طيبة ووجه طلق^(١) أمر يسير ، ولكن أثره فى نفس أخيك أثر عظيم . إنه يفتح لك مغاليق قلبه ، فإن كان بينك وبينه مودة ازدادت هذه المودة عمقاً وازدهاراً ، وإن كان بينك وبينه جفوة أو عداوة فعلت الكلمة الطيبة والبسمة الحانية فعلها فى نفسه :

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)^(٢) .

(١) منبسط .

(٢) الآية ٣٤ سورة فصلت .

ويقول الله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (١) .

فلا يحقرن أحد كلمة ينطق بها لسانه ، أو بسمه تنفرج عنها شفتاه . . . يكون لها من الأثر الطيب في النفوس ما لا يبلغه بوسائل أخرى قد تكون أعظم قدراً وأعز منالاً .

ألا وإن من الأدب النبوي أن يكون هذا سلوكك حتى مع من تسيء الظن به أو تعرف عنه السوء . لأنك إنما تعامله بما يليق بك لا بما يستحق . فقد روت السيدة عائشة - رضي الله عنها - أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه مقبلاً قال : « بشس أخو العشيرة وبشس ابن العشيرة . فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه !

فلما انطلق الرجل قالت له عائشة : يا رسول الله ، حين رأيت الرجل قلت كذا وكذا ، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه ! فقال رسول الله ﷺ :

يا عائشة ، متى عهدتني فحاشاً ؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره .

هذا هو المعروف ، وذلك أثره في النفوس . ولهذا كان الأمر بالمعروف والدعوة إليه واجباً على كل مسلم يحب للناس ما يحب لنفسه ، ويرجو لهم مثل ما يرجو

(١) الآيتان ٢٤ و ٢٥ سورة إبراهيم .

نفسه من الخير . والأمر بالمعروف يقتضى النهى عن المنكر . وكلاهما واجب يفرضه صالح اجتماع . يقول الرسول ﷺ : « لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم » .

وإذا كان الرسول ﷺ قد حث على أداء المعروف بين الإنسان وأخيه الإنسان حتى فى الأمور اليسيرة ، لتكون عنده عادة الخير ، وتفيض فى نفسه بناييع البر ، ولا تتوقف فى نفسه حركة المعروف . . فإن هذه المشاعر الخيرة حين تصبح طبيعة فى الإنسان تمتد فيوضها فتشمل كل ما يحيط به ، فإذا هو يتعاطف مع كل كائن حى . وفى هذا أيضاً لا يحقرن الإنسان ما يبذل من معروف . إن قطرات من الماء تقدمها إلى حيوان يلهث من العطش عمل يسير ولكن ثوابه يتضاعف عند الله حتى ليوازي ثواب أعظم الأعمال . . . قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » . قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

وليس أروع من هذه الصورة التى يمثلها هذا الحديث النبوى الشريف . . إن حفنة من الماء قدمها الرجل إلى هذا الكلب الذى كان يلهث من شدة العطش ، رفعت إلى هذه المنزلة العالية وذلك المقام المحمود . وهل هناك أسمى وأكرم من أن يكون الإنسان موضع الشكر والحمد ، وأن يكون الله - جل جلاله - هو الشاكر الحميد !

وهناك من المعروف ما يؤديه الإنسان ولا يكاد يحس به ، ولكن أجره عند الله مكفول . . إنه ثمرة دائمة من ثمرات عمله الصالح . ومن ذلك ما جاء فى الحديث

النبوي الشريف حيث يقول : « ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه
طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » .

فما أكثر وما أيسر وجوه المعروف ، وما أعظم ما يجزي به الإنسان على معروفه ،
ولو كانت قطرات ماء تبل بها ظمأ حيوان ، أو سنبله قمح تأكل منها الطير ، أو
كلمة طيبة أو بسمه حانية تلقى بها أخاك . . .

شريعة الحرب والسلام

الحرب من شريعة الحياة ، منذ هيبت الإنسان الأول على هذه الأرض وقد ركبت فيه غرائز الخير والشر. وكان الملائكة قد ألهموا هذه الصورة للبشرية في حوارهم مع الله ، تبارك وتعالى :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .
 قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ
 بِحَمْدِكَ ، وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١) .
 (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى)

(١) الآية ٣٠ سورة البقرة .

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ
 الْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ
 فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا
 فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١) .

وهبط مع آدم وحواء عدوهما اللدود إبليس ، بعد أن طرد من الجنة وحققت
 عليه اللعنة إلى يوم القيامة . فقال يخاطب الله - تبارك وتعالى - متوعداً آدم
 وذريته :

(لَأَزِينَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا آغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ
 مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ) (٢) .

فيقول سبحانه :

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ
 الْغَاوِينَ) (٣) .

ومنذ ذلك التاريخ الأول للبشرية على هذه الأرض ، بدأ الصراع بين بني آدم
 بعضهم وبعض ، وبدأ الصراع بينهم وبين إبليس فيما يزين لهم من أسباب الغواية .
 وما يثير في نفوسهم من نزغات الشر والعدوان .

(١) الآيات ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٣٩ و ٤٠ سورة الحجر .

(٣) الآية ٤٢ سورة الأنجر .

ومن عجب أن أول جريمة قتل بين بني آدم قاييل وهاييل : إنما كانت على طريق العبادة ، حين قدم كل منهما « قُرْبَانًا » لله ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . وهذا يشير إلى معنى دقيق . هو التحذير من مداخل الشر حتى في مجال الخير .

يقول القرطبي : إن قاييل تقرب بحزمة من سنبل ، لأنه كان صاحب زرع ، واختارها من أردأ زرعه ، ثم إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها . وكان قربان هاييل كيشًا لأنه كان صاحب غنم . أخذه من أجود غنمه . فتقبل الله قربان هاييل ، ولم يتقبل قربان قاييل .

(وَاتُّلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ . قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ، فَاصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (١) .

هي إذن بذور الحرب استقرت منذ بداية البشرية على هذه الأرض ، وبما ركب في النفوس من نزعات الخير ونزعات الشر ، وهذا الصراع الطويل الممتد بين الحق والباطل ، بين الظلم والعدل ، بين القوى والضعيف ، سواء في ذلك بين

(١) الآيات من ٢٧ إلى ٣٠ سورة المائدة .

الأفراد بعضهم بعضاً ، أو بين الحكام والرعية ، أو بين الدول والشعوب .
فالحرب إذن من شريعة الحياة . إذا لم يشأ الإنسان باغياً معتدياً على غيره ،
كان عليه أن يخوضها لرد البغي ودحر العدوان .

ومن هنا تختلف سياسة الحرب ومشروعية الجهاد .

ولقد وعت ذاكرة البشرية على امتداد عصور التاريخ ، وما تزال تشهد على
مسارح الحياة في مختلف أرجاء الأرض ، حروباً ومعارك لا تنطفئ نارها ولا يجبو
أوارها . ولكنها تختلف في بواعثها وأهدافها أيما اختلاف .

هناك حروب قامت - وماتزال - للسيطرة والتوسع والاستغلال ، وهناك

حروب قامت - وماتزال - للتحرير وحماية الأوطان والأموال والأعراض .

هناك حروب قامت بين أصحاب العقيدة الواحدة لتغليب مذهب على آخر ،

كالحروب التي قامت في العصور الوسطى بين الطوائف المسيحية ، والمعارك التي
تثور بين هذه الطوائف في أيرلندا حتى الآن .

ومن ذلك أيضاً الحروب التي كانت تنشب بين الفرق والطوائف الإسلامية ،

وللإسلام في ذلك سياسته التي تقول :

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ

بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ

اللَّهِ ، فَإِنْ قَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُقْسِطِينَ) (١) .

وهناك الحروب الاستعمارية التي شنها طغاة أوروبا باسم « الصليب » للسيطرة على

(١) الآية ٩ سورة الحجرات

الأمة العربية مسلمين ومسيحيين .

وهناك الحروب التي شنها الاستعمار التركي باسم « الخلافة » على البلاد العربية واصطلى بناؤها العرب ، المسلمون والمسيحيون على السواء .

وهناك الحروب الخنثوية المدمرة التي شنها التتار والمغول وكادوا أن يقضوا بها على الحضارة الإنسانية ، والتي تشبها إلى حد كبير الحروب النازية في العصر الحديث .

وهناك الحروب العنصرية التي تشنها الصهيونية على العرب ، فهي بالقدر والتواطؤ والتآمر مع الاستعمار تستولى على فلسطين ، وتقوم بإبادة أهلها وتشريدهم واغتصاب أرضهم وديارهم ، ثم تشن الحرب على البلاد العربية المجاورة لتفصح مجالا لهجرة الملايين من يهود العالم وتحقيق حلمها العدواني بإقامة دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات !

وهناك الحروب التي تشعلها الدول الاستعمارية والإمبريالية وتشجع عليها القوى العظمى لفرض سيطرتها على الشعوب واستغلال خيراتها وانحازها مناطق نفوذ وأسواقا لاستهلاك السلع والأفكار .

يقابل هذه وتلك حروب لها بواعث وأهداف أخرى تختلف عن هذه البواعث والأهداف .

حروب في سبيل الدفاع عن العقيدة ، وتحرير الأرض ، واسترداد الحق ، وحماية المستضعفين ، وتحرير الضمير الإنساني من سيطرة الطغاة ، وإقرار العدل والأمن والسلام .

كانت هذه الحروب على الأرض العربية في صدر الإسلام ، بين الرسول ﷺ وأصحابه وبين كفار قريش وغيرهم من المشركين العرب ، وبينهم وبين يهود الجزيرة العربية ، حتى استقرت العقيدة وتطهر المجتمع العربي من أدوان الشرك وأرجاس

الجاهلية ومفاسد اليهود وغدرهم . وتحققت الحرية والأمن والعدالة والمساواة بين الناس .

ثم كانت بين الدولة الإسلامية وبين الطغاة المتجبرين في فارس والروم ، حتى تحررت قبائل العرب المتاخمة لهم ، كما تحررت شعوب أخرى في آسيا وإفريقيا من سيطرة هؤلاء الطغاة ، ثم معارك أخرى على تعاقب العصور ضد الغزو المغولي والصليبي ، والاستعمار القديم والحديث ومعارك المقاومة والتحرير ضد الصهيونية التي تمثل أبشع صور العدوان على الأرض العربية .

وهناك حروب أخرى في مواجهة العدوان الأجنبي في كثير من دول العالم ، شعوب صغيرة تتحدى أعنى دول العالم بكل ما تملكه من قوى بشرية وموارد اقتصادية وأسلحة حديثة ، وأساطيل تعربد في المحيطات والبحار ، وطائرات تصب الموت والدمار ليل نهار . وتفرض على هذا العدو الذي يريد أن يكون جباراً في الأرض أن يدفع الثمن الغالي من أرواح رجاله وحطام طائراته .

هنا وهناك ، على امتداد التاريخ ، وعلى اتساع رقعة العالم ، قامت - وماتزال - تقوم حروب . ولكنها حروب تختلف في البواعث والأهداف . وسيظل هذا الاختلاف ما بقيت شريعة الحرب في الحياة ، بل ما بقيت على هذه الأرض حياة . . .

حتمية الجهاد

ومن هنا تتقرر حتمية الجهاد . . .

لا للبغي والعدوان ، ولكن لرد البغي ودحر العدوان . . .

(وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ،

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) (١) .

ويقول الله - تبارك وتعالى - :

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ

(١) الآية ٢٥١ سورة البقرة .

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١) .

ومن هنا تبدأ مشروعية القتال في الإسلام :

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ . وَآتَوُا الزَّكَاةَ ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (٢) .

وهذه الآية الكريمة تحدد في وضوح سياسة الحرب في الإسلام ، وتجمل هذه

السياسة في كلمات قليلة تنتظم كل ما يتصل بها من مبادئ وأهداف .

- إن مشروعية القتال تبدأ حين يقع العدوان ، ويدخل في ذلك بالضرورة أن

تكون الأمة متأهبة للقتال ، ملتزمة بالجهاد ، حتى تستطيع أن ترد العدوان حين

يقع ، أو تحول بذلك دون وقوعه .

يقول الله تبارك وتعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ،

(١) الآية ٢١٦ سورة البقرة .

(٢) الآيات ٣٩ و ٤٠ و ٤١ سورة الحج .

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (١)

- إن القتال ليس هدفه البغى والعدوان ، ولكن هدفه الدفاع عن الحرمات من أرض وعرض ومال وعقيدة ، وحماية أصحاب العقائد الدينية الأخرى كذلك من العدوان على معابدهم وشعائهم .

- إن القتال على هذه الصورة انتصار لكلمة الله وشريعته ، وأن المؤمنين بالله الملزمين لحدوده ، مكفول لهم النصر فيما يخوضون من معارك وحروب ، وقد يتحقق النصر للأمة وتتحقق مع النصر الشهادة لمن يصطفيهم الله لهذه المنزلة ، وهل تكون الشهادة بغير قتال ؟

- إن الغاية من القتال ، بعد الانتصار والتمكين في الأرض ، ليس الانتقام ، ولا استرقاق الشعوب ، ولكن إقامة شعائر الدين ، وإقرار العدل والأمن والسلام . ولقد ظل الرسول ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة ، يواجهه هو وصحبه أشد ألوان الفتنة والعذاب ، دون أن يحمل سيفاً أو يأمر أصحابه بقتال .

ثلاث عشرة سنة لقي فيها من قريش ولقي أصحابه ما لا يطاق ، كان المستضعفون منهم يسامون العذاب كياً بالنار ، وضرباً بالحديد والأحجار ، وإلقاء على رمضاء مكة في وقدة النهار ، وإن منهم من يدفع حياته ثمناً لإصراره على التمسك بدينه في مواجهة كل هذه التحديات .

ويتعرض الرسول ﷺ للسخرية والاستهزاء ، ثم للسب والابتناء ، ويتعرض معه بنو هاشم للمقاطعة التامة ثلاث سنين يقضونها محصورين منبوذين في شعاب مكة ، لا يكلمهم ولا يعاملهم ولا يبصاهم أحد .

ويفر إلى الحبشة من لا يطيق صبراً على هذه الحال ، فترسل قريش في أثرهم

(١) الآية ٦٠ سورة الأنفال .

من يحاول الإيقاع بينهم وبين النجاشي . وتطلب منه أن يسلم إليهم هؤلاء المهاجرين ، فإرد النجاشي وفد قريش مخذولين ، ويكرم وفادة من نزل بأرضه من المسلمين .

وإن من المؤمنين من كانت له في الجاهلية عزة وعصية ، فكيف يطبق الصبر على مثل هذا الهوان ؟

بل إن عامة الناس في المجتمع العربي ، كانت تحملهم الأنفة والحمية على شن الحروب وخوض المعارك لأتفه الأسباب ، فكيف بهم يقبلون هذا الضيم وهم يسامون الحسف وسوء العذاب ؟

ذلك أن المنهج الإسلامي في تربية النفوس كان يحرص على تأصيل فضيلة الصبر واحتمال المكاره في سبيل العقيدة ، ويعد المؤمنين بالنصر حين يحين موعده ويتحتم لقاء العدو . وفي ذلك يقول الله - تبارك وتعالى - لرسوله الكريم :

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) (١)

وحيث يشتد الأمر على المسلمين يذهب عبد الرحمن بن عوف وأصحاب له إلى الرسول ﷺ فيقولون له :

يا نبي الله ، كنا في عزة ونحن مشركون ، فلما آمننا صرنا أذلة .

فيجيب الرسول ﷺ :

« إني أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم » .

وكان ﷺ يقول : لم أؤمر بالقتال .

(١) الآية ٦٠ سورة الروم .

وهذا يدل على أن الأصل في الإسلام العفو والسلام ، وأن القتال لم يؤذن به إلا بعد أن استنفذ الرسول ﷺ كل وسائل الإقناع والمصابرة وطوال ثلاث عشرة سنة .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية دراسة فقهية مقارنة عن سياسة الحرب في الإسلام ، انتهى فيها إلى ترجيح رأي جمهور الأئمة مثل مالك وابن حنبل وأبي حنيفة وغيرهم ، على ما يقول به الشافعي وبعض أصحاب ابن حنبل ، وذلك في قتال الكفار وأهل الكتاب .

إن الجمهور يرون أن الأصل في مشروعية القتال هو الاعتداء ، وليس الكفر أو المخالفة في العقيدة . ويستدل ابن تيمية على ذلك بكثير من الآيات ، مثل قوله

تعالى :
(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ، وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ، فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ، كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) (١) .

ويقرر ابن تيمية بناء على ذلك أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو

(١) الآيات من ١٩٠ إلى ١٩٣ سورة البقرة .

السلام . وأن القتال لا يكون إلا في العدوان . وفي ذلك يقول :
— إذا كان القتال لأجل الحرب ، فكل من سالم ولم يحارب لا يقاتل سواء
أكان كتابيًا أم كان مشركًا .

يقول الله . تبارك وتعالى :

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ
يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ
وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ ،
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (١) .

ويتطرق ابن تيمية إلى بيان أن اختلاف العقيدة لا يكون سببًا في القتال ،
مستدلًا بقوله تعالى :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (٢) .

ثم يقول :

« إنا لا نكره أحدًا على الإسلام ، ولو كان الكافر يقتل حتى يسلم لكان هذا
أعظم الإكراه على الدين » .

يؤيد هذا موقف الرسول ﷺ من اليهود والنصارى في جزيرة العرب . . فإنه
حين قدم إلى المدينة وادع اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأمنهم على أموالهم ،

(١) الآيتان ٨ و ٩ سورة المنحة .

(٢) الآية ٢٥٦ سورة البقرة .

وظل وقياً لعهدده معهم حتى نقضوه .

وحين حضر وفد نصارى نجران إلى المدينة بعد أن دعاهم الرسول ﷺ للإسلام ، مكثوا في ضيافته أياماً وهم يجادلونه في دعوته ، وظلوا مصرين على عقيدتهم ، ومع ذلك أكرمهم وسمح لهم بالصلاة في مسجده ، ثم ودعوه وعادوا إلى بلادهم دون أن يدخلوا في الإسلام .

وفي الفتوحات الإسلامية للشام ومصر وغيرهما ، أعطى المسلمون العهد لأهل هذه البلاد أن يظلوا على دينهم ، وكفلوا لهم حرية عبادتهم وحرمة معابدهم . . . ومن دخل منهم في الإسلام كان ذلك بمحض الرغبة والافتناع . بل إن الأمر ليتعدى معاملة أهل الكتاب إلى معاملة المشركين . يقول الله ، تبارك وتعالى :

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) (١) .

هذا وإن الإسلام - حتى في حالة القتال المشروع - لا يتعدى المقاتلين من الأعداء إلى غيرهم من الشيوخ والنساء والأطفال والمنقطعين للعبادة ، وهم الذين لا يشاركون قومهم في القتال ، ولذلك كان من وصايا الرسول ﷺ للمقاتلين قوله :

« اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منغزلاً بصومعته ، ولا تحرقوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً . »

(١) الآية ٦ سورة التوبة .

هذا إلا إذا اقتضت الضرورة الحربية ذلك وكان له ما يبرره . . . فقد أمر الرسول ﷺ بقتل دريد بن الصحة في « حنين » وكان شيخاً بلغ العشرين بعد المائة ، لأنه كان يشارك قومه القتال بالمشورة والرأى .

وكذل أمر بتدمير بيوت بنى النضير وكانوا يتخذونها حصوناً للحرب « يخرّبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين » . . . بل إنه أمر بحرق مسجد الضرار ، وكان الذين بنوه يتخذونه مجتمعاً للفتنة والتأمر .

كما أمر عند حصار الطائف بقطع كروم ثقيف . . . على أن الغالب في مثل ذلك هو قطع الثمار وليس الأشجار .

(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْتَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ

اللَّهِ) (١)

لأن المقصود هو حرمان العدو من الثمار وهي بعض مصادر قوته في الحرب ، وليس القضاء على النخيل والأشجار وهي من مصادر الرزق في سائر الأوقات . والإسلام لم يكن يستهدف في حروبه على مشارف الجزيرة العربية وفيما وراءها ، إلا القضاء على الطغاة المنجبرين من ملوك الفرس وقيصرة الروم ، وتحرير ما تحت أيديهم من الشعوب ، ولهذا كان القتال مقصوداً على الجيوش المتحاربة دون التعرض لعامة الناس بأى سوء . ومن أجل ذلك كانت هذه الشعوب تعين الجيوش الإسلامية على حكوماتها الباغية ، وتمهد لها أسباب النصر ليتحقق لها هدف التحرير وحماية العقيدة وإرساء دعائم الأمن والسلام .

وكان ﷺ إذا خرج للقتال يتوجه إلى الله بهذا الدعاء :

(١) الآية ٥ سورة الحشر .

اللهم أنا عبدك . وهم عبادك . نواصيت ونواصيتهم بيديك . نبيهم هزمهم
وانصرتنا عليهم . .

إن الصورة التي يتشبهها الرسول ﷺ في مواجهة هؤلاء الأعداء - المعتدين -
هي أنهم مثله عباد الله .

إنه يستشعر في موقفه هذا الأخوة الإنسانية التي تجمعهم بهؤلاء الأعداء ويحتكم
في أمرهم إلى الله بعد أن اضطره لقتالهم . فيسأله انتصر عليهم لنتصر كلمة الله .
ومثل هذه الحرب لا يمكن أن تكون حرباً باغية . ولا يمكن أن تنفقت فيها الأحقاد
شفاء لما في الصدور . ولكنه جهاد خالص باسم الله وفي سبيل الله . . .
ويذهب الرسول ﷺ في سياسة الحرب إلى أبعد من ذلك . إنه لم يكن أحب
إليه من تأليف القلوب وحقن الدماء . ولهذا كان يقول لجيوشه :

« تألفوا الناس . وتأنوا بهم . ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم « إلى الإسلام »
فما على الأرض من أهل مدر ووبر - إلا أن تأنوني بهم مسلمين - أحب إلى من أن
تأنوني بأبنائهم ونساءهم وتقتلوا رجالهم » .
وكان من وصاياهم ﷺ قوله :

« لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدأوكم ، فإن
بدأوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً ، ثم أروهم ذلك القتل وقلوا لهم :
هل إلى خير من هذا سبيل ؟ فلئن يهدى الله على يديك رجلاً واحداً خير لك
مما طلعت عليه الشمس وغربت » .

وكذلك كان الخلفاء الراشدون في حروبهم وفي وصاياهم للجيوش . كانوا
يأخذون على أيدي القواد الذين يسرفون في قتل الأعداء . ولقد عزل عمر
ابن الخطاب القائد المنتصر خالد بن الوليد وكان يقول : إن في سيف خالد لرهقاً ،
أي إرهاقاً وشدة ، بكثرة ما يقتل من الأعداء . ويمتدح عمرو بن العاص في فتح

مصر بقوله : تعجبنى حرب ابن العاص . إنها حرب رفيقة سهلة .
 على أن ذلك لا يعنى أن سياسة الحرب فى الإسلام تقوم على هذا الوجه
 وحده ، سياسة هينة لينة رفيقة بغير حدود ولا قيود ، ذلك لأن الحرب هى الحرب
 بشدتها وبأسها ، والعدو هو العدو بضراوته وبغيه وعدوانه ، وإنما كانت هذه
 الوصايا ضوابط لنوازع الحرب حتى لا تكون حرباً باغية . أما الوجه الآخر لسياسة
 الحرب فى الإسلام ، فهو الصدق عند اللقاء وأخذ العدو أخذاً شديداً .
 يقول الله ، تبارك وتعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا
 فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (١) .
 (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا
 أَتَخْتَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ ، فَمَا مِنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ
 الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) (٢) .

والإسلام يستجيب للدعوة إلى السلام حقناً للدماء .
 يقول الله - تبارك وتعالى - :

(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (٣) .

(١) الآية ١٢٣ سورة التوبة .

(٢) الآية ٤ سورة محمد .

(٣) الآية ٦١ سورة الأنفال .

وقد تكون الدعوة إلى السلم خدعة من العدو ، ومع ذلك فإن سياسة الإسلام في الحرب تقضى بالاستجابة حتى في هذه الحالة ، مع أخذ الحيطة والحذر والإيمان بنصر الله .

وفي ذلك تقول الآية التي بعدها :

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ
بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)^(١) .

(١) الآية ٦٢ سورة الأنفال .

الجهاد فريضة دينية وواجب اجتماعي

والقتال في الإسلام فريضة دينية وواجب اجتماعي في وقت معاً ، لأنه يقوم على دفع الظلم ومحاربة الفساد وحماية الحرمات وإقرار الحقوق ، والتكافل في تحقيق ذلك بين جميع القادرين من أبناء الأمة على أداء هذه الفريضة .

(وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا) (١)

(١) الآية ٧٥ سورة النساء .

ويقول تبارك وتعالى :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (١) .

والإسلام لا يعرف في القتال من يسمون في هذا العصر بالمرتقة . إن كل مقاتل يعد نفسه للجهاد فيخرج بسلاحه وزاده وراحلته ، وإن المقاتلين الموسرين يمدون لإخوانهم بالمال والسلاح والرواحل . هذا قبل أن تتكفل الدولة بتدبير موارد الحرب والإنفاق على كتائب الجهاد ، ومع ذلك ظل الباب مفتوحاً لإسهام القادرين بالتبرع بالمال لدعم هذه الموارد .

إن المقاتل ليخرج للجهاد ولا هدف له إلا النصر أو الشهادة ، مؤمناً بقوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (٢) .

وكذلك كان ميزان الصدق في الجهاد ، أن تكون الغاية من القتال هي ابتغاء وجه الله ، لا الفخر ولا الغنيمة .

(١) الآية ٥ سورة القصص .

(٢) الآية ١١١ سورة التوبة .

قال رجل للرسول ﷺ : يا نبي الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟
قال ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

وجاء أعرابي إلى الرسول ﷺ فأمن به ثم قال : أهاجر معك ، ثم كانت غزوة غنم الرسول فيها بعض الغنيمة فقسمها على أصحابه وأعطى منها هذا الأعرابي نصيبه . ودهش الأعرابي وقال : ما هذا ؟ قال الرسول هذا : نصيبك .
فقال الأعرابي : ما على هذا اتبعتك ، ولكني اتبعتك على أن أرمى في حلقى بسهم فأموت فأدخل الجنة .

وصدق الأعرابي فيما قال ، فإزال يقاتل حتى أدرك منيته بالشهادة في سبيل الله .

لم يكن الجهاد إذن مقصوراً على فريق يحترف الحرب والقتال ، ولكنها تعبئة عامة لكل قادر ، ولكل مسلم ومسلمة مكانه في المعركة ، ولا يعنى من حمل السلاح إلا الشيوخ والنساء والأطفال وأولو الضرر من المرضى وذوى العاهات .
ومع ذلك فإن عقيدة الجهاد ملأت قلوب المؤمنين الذين فرض عليهم القتال ، كما ملأت قلوب الذين أعفاهم الإسلام من حمل أعبائه على السواء .

هذه أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية ، شهدت يوم أحد مع زوجها وابنتها ، كانت في أول النهار تسقى الجرحى والمسلمون متصرون ، فلما دارت الدائرة عليهم ألقت السقاء وحملت السيف تقاتل ، وحين انكشف الرسول ﷺ للعدو وهاجمه عمرو بن لبيبة وقفت نسيبة تدافع عنه ، فتوجه إلى ابن لبيبة ضربات بسيفها فتوقع درعين كانتا عليه ، وتلقى منه ضربة بالسيف تصيبها على عاتقها بجرح عظيم ، وهي ثابتة في مكانها لا تبرحه مع من ثبت إلى جانب رسول الله من الرجال !

وقاتلت نسيبة يوم اليمامة ، فقطعت يدها وهي تحاول قتل مسيلمة ، ولم تزل
تقاتل حتى رأت مسيلمة مقتولا فسجدت شكراً لله .

وهؤلاء صبية لم يبلغوا الحلم ينضمون إلى المقاتلين في غزوة أحد ، وحين
يستعرض الرسول ﷺ جنوده يخرج هؤلاء الصبية من بين الصفوف ، وإن منهم
من يشب على قدميه ليبدو أكبر من سنه .

وكان من هؤلاء رافع بن خديج ، قيل للرسول ﷺ إنه يحسن الرمي فأجازه ،
ومنهم سمرة بن حنبل . . قيل : يا رسول الله ، لقد أجزت رافعاً ، وإن سمرة
بصرعه . . فأجاز سمرة كذلك وضمها للمقاتلين وكلاهما في الخامسة عشرة من
عمره .

وفي هذه الغزوة رد الرسول ﷺ أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر
ابن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم ، وأسيد
ابن ظهير ، ثم أجازهم يوم الخندق وهم أبناء خمس عشرة سنة .

وهذا عمرو بن الجموح ، وهو أعرج شديد العرج ، أراد الخروج مع أولاده
الأربعة في غزوة أحد ، فأبوا عليه ذلك لكبر سنه وعاهته ، وقالوا له : نحن
نكفيك وقد رفع الله عنك الحرج . . فذهب إلى رسول الله ﷺ يشكو أولاده ،
فقال له الرسول ﷺ : إن الله قد وضع عنك الجهاد . .

فقال عمرو : يا رسول الله ، لا تحرمني الجنة فإني أريد أن أدخلها فأطأ فيها
بعرجى .

فقال الرسول ﷺ لأبناء الرجل :

وما عليكم أن تركوه ففعل الله أن يرزقه الشهادة ؟

وقاتل عمرو بن الجموح في سبيل الله حتى استشهد .

وفي عمومية فرض الجهاد على المسلمين عند التعبئة العامة ، يقول الله ، تبارك وتعالى :

(انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا) .

أى شيوخاً وشباناً ، أقوياء وضعفاء ، أغنياء وفقراء ، مشاغيل وغير مشاغيل ، فى المنشط والمكروه ، فى الشدة والرخاء .

وفى إحدى الغزوات التى انتدب لها المسلمون على عهد عثمان بن عفان ، قرأ أبو طلحة الأنصارى وهو شيخ مسن هذه الآية ، ثم قال لأبنائه : لم يبق لأحد عذر ، أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً . وطلب منهم أن يجهزوه للحرب .

قالوا له : يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك .

فأبى أبو طلحة إلا الخروج مع المقاتلين ، وركب البحر غازياً فى سبيل الله ، حتى استشهد .

وقد نعى الله - تبارك وتعالى - على المخلفين تقاعدهم عن الجهاد ، وأنزل فى غزوة « العسرة » آيات تدمغهم وتفضح ما اعتذروا به من أسباب فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِذَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ، أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (١) .

(١) الآيتان ٣٨ و ٣٩ سورة التوبة .

(أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسِيحِلْفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (١) .

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (٢) .

وهؤلاء هم المنافقون الذين كره الله خروجهم فصرف قلوبهم عن ذلك حتى لا يكونوا وبالا على المجاهدين ، يثبون في صفوفهم الفتنة بالشائعات والأراجيف وتهويل أمر العدو عليهم وإثارة البلبلة والخلاف فيما بينهم .
ويقول الله - تبارك وتعالى - في شأن هؤلاء المتخلفين :

(إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (٣) .

(١) الآياتان ٤١ و ٤٢ سورة التوبة . (٢) الآياتان ٥٠ و ٥١ سورة التوبة .

(٢) الآياتان ٤٦ و ٤٧ سورة التوبة .

نعمة قديمة جديدة، ردها المنافقون المتخلفون في عهد الرسول ﷺ ومازالت أصداؤها تتردد حتى الآن بين بعض الضعفاء والمنافقين .
إن تطهير الصفوف من أمثال هؤلاء يكفل المنعة والقوة للمجاهدين و يكشف نفاقهم والتصدي لما يرجفون به واجب على المواطنين لحماية جبهات القتال والجبهات الداخلية من عوامل التصدع والخذلان .

• • •

ومن الخلفين ثلاثة كان لهم شأن آخر .
هذا كعب بن مالك من المؤمنين الصادقين ، ما تخلف عن غزوة قط في سبيل الله ، ولكنه في هذه الغزوة - غزوة تبوك - كانت تراوده نفسه إيثاراً للراحة وتجنباً للمشقة ، فبهم بالانضمام للجيش ثم يتردد فيقعد مع القاعدين .
وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة ، وأقبل الخلفون يعتذرون إليه ويخلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً . فقبل الرسول اعتذاهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

وجاء كعب بن مالك يتعتر في خطواته فقال : يا رسول الله ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .
فقال الرسول ﷺ أما هذا فقد صدق .

ثم قال لكعب : قم حتى يقضى الله فيك .
وكذلك فعل الرسول ﷺ مع مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفي . وأمر بأن يتجنب الناس هؤلاء الثلاثة الخلفين حتى يقضى الله في أمرهم . . . فعانوا من مقاطعة الناس قريبتهم وبعيدهم ما عانوا .

قال كعب بن مالك : فلما مضت أربعون ليلة على هذه الحال ، إذا برسول يأتيني فيقول : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعزل امرأتك .

فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟

قال : بل اعترضا ولا تقرها .

فقلت لامرأتى : الحق بأهلك فكوفى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

وكذلك فعل الرسول ﷺ مع مرارة وهلال .

حتى إذا انقضت خمسون ليلة جاء من يبشر الثلاثة بالفرج . . .

فقد تاب الله عليهم وأنزل فيهم قرآنه :

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ

اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ،

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ

خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ

عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ

عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (١) .

* * *

(١) الآيتان ١١٧ و ١١٨ سورة التوبة .

ويتخذ منكم شهداء

وفي غزوة أحد التي سقط فيها كثير من الشهداء ، وتعرض الرسول ﷺ لسهام العدو وسيوفهم نزلت آيات كثيرة تجمع من صور الجهاد والاستشهاد ما يتصل بمختلف المواقف :

• التحريض على الجهاد والصبر وعدم الاستسلام للهزيمة واليأس :

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

• الإشارة إلى طبيعة الحرب ، وما ينال المجاهد - وعدوه مثله - من شدة

وبأس وتعرض للقتل والجراح ، والتراوح بين الهزيمة والنصر ، وفي ذلك إظهار

لإيمان المؤمنين وسبيل لبلوغ شهادة الشهداء :

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلَهُ ، وَتِلْكَ

الأيام نداولها بين الناس ، وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ .

• ذلك لأن في الجهاد امتحاناً لقلوب المؤمنين ومبلغ ثباتهم ، وهلاكاً للظغاة
الذين يكفرون بالله ويتعدون حدوده ، وتأكيده أن الجنة تحت ظلال السيوف ،
لا يدخلها إلا المجاهدون الصابرون :

(وَلَيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) .
(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .

• وعاتب الله - تعالى - المهزمين الذين لم يثبتوا على شدة الجهاد وضراوة
القتال ، وقد كانوا من قبل يتمنون ملاقات العدو ويطلبون الشهادة في سبيل الله ،
فلا دارت الدائرة على المسلمين ، وأرجف المرجفون بأن عمداً قد مات . . انقلبوا
على أعقابهم يلتمسون النجاة من الموت . وما كانت الشهادة انتقاصاً لعمر الإنسان
المحدود ، ولا ابتداراً لأجله قبل مواعده المقدر :

(وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) .

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَلَنْ

مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ
يُضُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) .

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُوَجَّلًا ،
 وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ،
 وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ) .

• وأشاد بمواقف من صدقوا عن الربانيين المجاهدين مع أنبيائهم في مواطن القتال ومواقف البأس والشدة ، فكان جزاؤهم النصر على عدوهم أو الشهادة التي بلغوا بها أعلى المراتب في الآخرة :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبَّتْ أقدامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (١) .

* * *

وما من إنسان يموت وهو يعلم مقامه بعد الموت إلا الشهيد . إن كل إنسان تتنازعه السيئات والحسنات ، فهو من أخراه على وجل وإشفاق لا يدرى هل تثقل أم تخف موازينه هناك ، أما الشهيد فقد أخذ من الله عهداً لن يخلفه ، ومن أوفى بعهده من الله . فهو يعرف مقامه من الجنة ، وإنه لنى حياة متصلة محفوفة بالكرامة والرزق الكريم .

(١) الآيات من ١٤٦ إلى ١٤٨ سورة آل عمران .

يقول الله تعالى :

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (١)

وقال عليه السلام :

« ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة . . . ولقد تمكنت هذه العقيدة في النفوس المؤمنة ، فكانوا يتسابقون إلى ميدان القتال يحملون أرواحهم على أكفهم ، ولا هم لهم إلا تحقيق النصر أو إدراك الشهادة . ومن الأمثلة التي يزخر بها تاريخ الصدر الأول في الإسلام ، والتي ما زالت تلهم القلوب برواقد غزيرة من القوة والتضحية والفداء ، قصة عمير ابن الحمام الأنصاري في غزوة بدر ، حين نادى الرسول صلى الله عليه وسلم في أصحابه يحرضهم على القتال : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض . . . فينطلق الأبطال يتسابقون في خوض المعركة ، ويسارعون إلى أبواب الجنة يطرقونها بسيفهم وأرواحهم .

ويقول عمير بن الحمام الأنصاري :

- يا رسول الله . . . جنة عرضها السموات والأرض ؟

قال : نعم .

(١) الآياتان ١٦٩ و ١٧٠ سورة آل عمران .

وكان في يد عمير تمرات يأكل منها ، فخطب نفسه قائلاً : إذن ، ليس بيني وبين الجنة إلا هذه التمرات ، ولئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة . . .

ورمى عمير التمرات من يده ، ثم اندفع يقاتل ويضرب في العدو حتى استشهد . وانطبعت على شفتي الشهيد سمة راضية مطمئنة وانعكست في ناظره أنوار الجنة .

وكان ممن قاتل في غزوة بدر حتى استشهد ، حارثة بن سراقة ، فجاءت أمه إلى الرسول ﷺ فقالت له :
يا رسول الله ، ألا تحدثني عن حارثة . . . فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء .

فقال لها الرسول ﷺ :
« يا أم حارثة ، إنها جنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى .
فانفرجت أسارير الأم المؤمنة الصابرة ، وحمدت الله على ما بلغه ابنها من الكرامة .

والشهادة لا تقتصر على الموت في ميادين القتال ، ولكنها متاحة لكل مسلم حيثما كان مكانه وإمكانه حين يتعرض للعدوان على دينه ووطنه وأهله . فهو مطالب عند ذلك بالأبذل ويستسلم ، بل يتصدى للعدو بكل ما أوتي من قوة ، يقاتله بكل قوة وبكل سلاح ، ويقاومه حتى آخر رمق في حياته ، فإن غلبه العدو على أمره وسقط صريعاً في المعركة فقد ظفر بالشهادة وكان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء .

« من قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

وهذا الحديث يوحى بأكثر من معنى في هذا المقام . . . إنه يدعو كل مسلم لكي يعد نفسه لأن يكون أهلاً للجهاد في سبيل حماية دينه ووطنه وأمنه ، مستعداً للدفاع عن مقدساته وحرماته . وهذا يتطلب منه أن يأخذ بأسباب القوة المادية والنفسية ، وأن يحتفظ على الدوام بلياقته البدنية ، بممارسة فنون الرياضة النافعة ، وفي مقدمتها أساليب الدفاع عن النفس ، والبعد عن كل ما يفسد الجسم والعقل ، والتمسك بالمبادئ والقيم التي تزوده بطاقات العزة والحمية وأسباب القوة والغلبة والانتصار . فإذا أخذ كل فرد في الأمة نفسه بهذا الإعداد البدني والنفسي ، كانت الأمة كلها مجتهدة في معركة الحياة ، فإذا ما تعرض الفرد للظلم لم يذل ولم ينجح ، بل يدافع عن حقه حتى ينتصر أو يموت دونه ، وإذا ما تعرضت الأمة للعدوان كانت قواتها المسلحة قادرة على سحق العدو ومن ورائها جماهير الأمة تقف للعدو بالمرصاد ، وتنتظر دورها في المعارك حيناً دارت رحاها في أي مكان ، وقد أعد كل فرد فيها نفسه للقاء العدو يقاتله وينازله بكل سلاح ، حتى يفتدى وطنه وأمنه ، ويحمي أرضه وعرضه ، أو يظفر بالشهادة في سبيل الله .

جهاد في كل مكان

والجهاد في الإسلام لا يقتصر على القتال في ميدان المعركة فحسب ، ولكنه يمتد فيشمل دائرة المجتمع كله ، ولهذا كانت سياسة الحرب في الإسلام تقوم على إعداد الأمة كلها لحمل أعبائه ، باعتبار الحرب فريضة دينية ووظيفة اجتماعية لتأمين الدعوة وحماية المجتمع والدفاع عن حقوقه وحرماته ، يشترك فيها كل فرد حسبما تحدده إمكانياته وترسمه القيادة العامة في تخطيطها للحرب .

إن منهم من يبقى لرعاية النساء والأطفال ، وله أجر الجهاد ونصيبه في الغنيمة ، كما فعل الرسول ﷺ حين عهد بذلك إلى عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وحسان بن ثابت في بعض الغزوات .

ويقول الرسول ﷺ « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا » .

إن كل من يشترك في الإنتاج الحربي ، صناعة أو تجارة أو زراعة ، أو في التعبئة للحرب بالإعداد والتدريب والتبرع بالدم والمال ، كل أولئك لهم فضل المشاركة في الغزو وشرف الجهاد .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الله ليجزى بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة . . . صناعه ونابله ، والرامي به) .

وإن رعاية أسر المجاهدين والقيام بشئونهم لا يقل في الميزان عن القتال في الميدان .

ولقد كان عمر بن الخطاب يقول للمجاهدين وهم متوجهون للحرب : أنا أبو العيال حتى ترجعوا .

والمرابطة على الثغور ، وحراسة المرافق العامة ، من الجهاد في سبيل الله . قال الرسول ﷺ :

« رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه » .

« حرس ليلة في سبيل الله ، أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » .

« عينان لا تمسها النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في

سبيل الله » .

والتحريض على القتال ، والتصدي للشائعات ، والجهاد بالكلمة من أسلحة

الحرب . ولقد كان الرسول ﷺ يقول لحسان بن ثابت :

« والله إن شعرك لأشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام » .

وفي غزوة الأحزاب كان لموقف نعم بن مسعود أثر قوي في تصديع جبهة العدو

وحملهم على الانسحاب ، بعد أن اجتمعت قريش وكثير من القبائل العربية

واليهود على غزو المدينة والقضاء على محمد - ﷺ - ودعوته .

وترجع غزوة الأحزاب إلى مؤامرة يهودية بدأ بها فريق من زعماء بني النضير

وبنى وأائل ، حيث قدموا مكة وحرصوا قريشاً وغطفان على قتال الرسول ﷺ وقالوا : إننا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

« ووجدت قريش وغيرهم في دعوة اليهود وتحالفهم معهم على حرب محمد ﷺ فرصة تغتتم ، فنشطوا لذلك وأعدوا للأمر عدته ، ثم خرجوا في عشرة آلاف مقاتل .

وعلم الرسول ﷺ وصحبه بالأمر ، وتداولوا ماذا هم فاعلون لملاقاة هذا العسكر الكثيف الذي يكاد يطوقهم من كل جانب .
وقال بعضهم : لا سبيل لملاقاة العدو ، ولا مناص من التحصن داخل المدينة . . . وأشار عليهم سلمان الفارسي بحفر الخندق . وحين أقبلت الأحزاب ورأت الخندق يحصن المدينة أسقط في أيديهم ، وهنا فكر حبي بن أخطب زعيم بني النضير في حيلة يقضى بها على استحكامات الدفاع التي فاجأ بها المسلمون الأحزاب .

وتسلل حبي بن أخطب إلى المدينة حتى أتى يهود بني قريظة ، وكان بينهم وبين الرسول ﷺ عهد وموادة ، وقصد إلى زعيمهم كعب بن أسد يقول له : جئتك بعز الدهر ، وبيحر طام ، جئتك بقريش وغطفان على قادتها وسادتها ، قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه .

فتردد كعب وقال له : إني قد عاهدت محمدًا فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقًا .

فلم يزل به يحاوره ويزين له حتى أقنعه بنقض العهد والانضمام بقومه إلى الأحزاب ، وكانت طعنة غادرة في ظهور المسلمين ، وتمت حلقة المؤامرة التي زلزلت القلوب والأقدام .

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتْ

الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِإِلَهِي الظُّنُونَا . هَذَاكَ
ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا (١) .

وظلت الأحزاب تحاصر المسلمين بضعا وعشرين ليلة ، والمسلمون يرابطون في
مواقعهم ليس بينهم وبين المشركين إلا الرمي بالنبال والمبارزة بين الأقران . وحين
اقتحم بعض فرسانهم الخندق تصدى لهم على بن أبي طالب في جماعة من
المسلمين ، فردوهم على أعقابهم ، بعد أن قتل على بن أبي طالب ، وهو يومئذ فتى
قد جاوز العشرين بقليل ، عمرو بن عبد ود أحد أبطالهم الكبار .
ولكن المعركة لم تنته بعد ، فقد طالت أيام الحصار ، واستمرت المناوشات ،
واشتد على الناس البلاء ، وراجت سوق المنافقين حتى قال بعضهم : كان محمد
بعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى
الغائط !

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) (٢) .

وهم الرسول ﷺ أن يعقد صلحا مع غطفان ليكسر عن المسلمين شوكة
عدوهم ، ويقضى على الحلف الذي جمع الأحزاب على حربه ، فأرسل يفاوض
غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة إذا رجعوا عن قتاله ، وأعدوا فيما بينهم
مشروع معاهدة للصلح على ذلك .

(١) الآيتان ١٠ و ١١ سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٢ سورة الأحزاب .

ولكن الرسول ﷺ قبل أن يبرم هذه المعاهدة استدعى زعيمى الأنصار سعد ابن معاذ وسعد بن عباد يستشيرهما . . . فقالا له :

- يارسول الله ، أمراً نحب فتصنعه ، أم أمراً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟

قال : بل شئء أصنعه لكم . . . والله ما أصنع ذلك إلا أنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، واشتدوا عليكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .
فقال سعد بن معاذ :

يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى « ما يقدم للضيف » أو يبعأ . أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا . . . والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .
فأقره الرسول ﷺ على ما قال .
إنه الصمود والمقاومة حتى النصر .

ونعود إلى نعيم بن مسعود ، فقد أسلم دون أن يعلم به قومه من غطفان وجاء إلى الرسول ﷺ فقال :

يارسول الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لا يعلمون بإسلامي ، فرئى بما شئت .

قال : خذَلْ عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ .

فخرج نعيم بن مسعود وقد رسم خطته لتخذيل العدو ، وهو مما يعرف الآن بالحرب النفسية ، وبدأ ببني قريظة ، وكان لهم نديماً فى الجاهلية ، فقال :
يابنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم .

قالوا : صدقت ، نست عندنا بمتهم .

قال : إن قريشاً و غطفان ليسوا مثلكم ، أئبد بلدكم ، فيه أئمانكم وأئناؤكم
ونسائؤكم ، لا تقدرؤن أن تتحولوا منه إلى غيره . وإن قريشاً و غطفان قد جاءوا
حرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتمؤهم عليه ، وبلدهم وأموؤهم وئناؤهم
بغيره ، فليسوا كأئتم ، وإن رأوا فرصة انتهزؤها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم
وخلؤا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقة لكم به . . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا
منهم رهناً من أشرافهم ، يكونؤن بأئديكم ثقةً بكم على أن تقاتلوا معهم محمد
حتى تفضوا عليه .

فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

ثم توجه نعيم إلى قريش ، وإلى غطفان . . فقال لهم : إن اليهود تدمؤا على
الغدر بمحمد ، فراسلؤه في الرجوع إليه ، فراسلهم بأننا لا نرضى حتى تيعثؤا إلى
قريش فتأخذوا منهم رجالا رهناً فأقتلهم .
فلما أصبح أبو سفيان أرسل عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش و غطفان إلى
بنى قريظة يقول لهم :

إننا قد ضاق بنا المنزل ، ولم نجد مرعى ، فأعدوا للقتال حتى تناجز محمدأ ونفرغ
مما بيننا وبينه .

فأجابوا : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك
بالذين نقاتل معكم محمدأ حتى تعطؤنا رهناً من رجالكم ، فإننا نخشى إن اشتد
عليكم القتال أن تعودوا إلى بلادكم وتتركؤنا ، والرجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا
بذلك منه .

وقالت قريش و غطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق .
وبعثوا إلى بنى قريظة يقولون : إننا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من

وإلّا . فإن كنتم تريدون القتال فأخرجوا فقاتلوا .

وإلى بنو قريظة بعضهم لبعض : إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق .

ووقع الخذلان في صفوف الأحزاب ، فاضلت عقدهم ، وتراخت قبضتهم

عالمدين ولم يلبثوا أن هبت عليهم عاصفة اقتلعت خيامهم وكفأت قدورهم .

يقال أبو عبيان : يامعشر قريش ، والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك

الكراع والخف « الدواب والإبل » وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الريح

ماترون ، فارتحلوا فإني مرتحل .

وفي غزوة الأحزاب هذه تمثل عدة جوانب من سياسة الحرب في الإسلام ،

لأنها جمعت في عداوة الرسول ﷺ أطرافاً كثيرة ، منهم قريش وقبائل أخرى من

العرب وهم أعداء محاربون ، ومنهم اليهود وهم معاهدون ، ومنهم المنافقون من

المسلمين . وكان للرسول مع كل من هؤلاء الذين اشتركوا في حربه موقف

وحساب .

تمثل مبدأ « المودعة » ومصالحة يهود المدينة على أثر الهجرة ، حتى يأمن

المسلمون شرهم ويعيش الجميع في أمن وسلام ، وحتى تنهياً للمسلمين في دار

هجرتهم أسباب الاستقرار والقوة ، وكانت تلك من سياسة الإسلام في علاقته

بالعرب المشركين وبأهل الكتاب وغيرهم من البلاد المجاورة . تمثل ذلك في معاهدة

الحديبية مع قريش ، وفي مودعة يهود المدينة وبعض القبائل العربية ، وفي رسائل

الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء ، وفي عهد الخلفاء ولقواهم إلى الشعوب التي

امتدت إليها دعوة الإسلام .

وإذا كان بنو قريظة قد خانوا العهد ، وغدروا بمحمد ﷺ ، وذلك

بانضمامهم إلى الأحزاب في حربه ، بدلا من أن ينضموا إليه في حرب الأحزاب ،

برغم اعترافهم بأنهم لم يروا منه إلا وفاء وصدقا .

إذا كان بنو قريظة قد فعلوا ذلك ، فإن عليهم وزر ما فعلوا ، وقد نالوا جزاء خيانتهم وغدرهم . فقد نخرج إليهم الرسول ﷺ فور عودته من غزوة الأحزاب ، وحاصرهم خميساً وعشرين ليلة حصاراً شديداً حتى أجهدهم ، فطلبوا أن يحكمه فيهم حليفهم ومولاهم سعد بن معاذ . فقال سعد : فإني أذكركم أن يقتل الرجال وتقسّم الأموال ، وتسي الذراري والنساء .

فقال الرسول ﷺ : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات . ومن المبادئ التي تقررت في غزوة الأحزاب وفي غيرها من الغزوات الأشد بمشورة أهل الرأي والخبرة . وقد كان حفر الخندق خطة جديدة لا عهد للعرب بها من قبل ، وأشار عليهم بذلك سلمان الفارسي فكانت من أسباب النصر . ومن هذه المبادئ والخطط عدم الخروج للملاقاة العدو والتحصن بالمدينة ، فذلك في مواجهة الأحزاب المهاجمين يعطى المسلمين ميزة التفوق على عدوهم بأيسر جهد وأقل نفقة ، ويكلف العدو أعباء الامتزاز والتعرض لعوامل الطبيعة التي تمثلت في الرياح العاصفة والأمطار الشديدة ، كما هلكت الخيل والإبل لقلة المرعى وبعد مصادر التموين .

وإذا كان الإسلام في مثل هذه الحالة لا يحض على المسارعة إلى لقاء العدو ، أو هو يقرر ذلك بصفة عامة ، كما جاء في قول الرسول ﷺ : « لا تتمنوا لقاء العدو . . . » . فإن بقية الحديث النبوي تحدد واجبات المسلمين إذا تحتم هذا اللقاء ، فيقول :

« . . . وإذا لقيتم فاثبتوا » .

وفي الثبات عند لقاء العدو ونحرم الفرار آيات كثيرة : بقول الله تبارك وتعالى :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ) (١) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ
الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَى
فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (٢) .

لا انسحاب من وجه العدو فراراً من لقائه ، ولكن تنفيذاً لخطة قتالية يعود بها
الكر بعد الفر ، والافتحام بعد الإحجام ، وتحقيق بها الغلبة والانتصار .
ومن سياسة الحرب التي تمثلت في هذه الغزوة كذلك « تحذيل » العدو . وهي
المهمة التي كلف القيام بها نعيم بن مسعود ، والتي أدت إلى بث الفرقة وإثارة سوء
الظن بين الأحزاب ، حتى انحلت عقدهم وتفرقت كلمتهم ونحطمت جيوشهم
وانصرف كل منهم يرجو لنفسه النجاة .

•••

ومن سياسة الحرب في الإسلام ، الرجوع إلى الشعب في شخص ممثليه قبل
اتخاذ قرار خطير في شأن الحرب أو السلام .

أما في شأن الحرب فنعود قليلاً إلى غزوة بدر ، حين استنفر الرسول ﷺ
أصحابه من المهاجرين والأنصار لمصادرة قافلة لقريش كانت في طريقها من الشام
إلى مكة ، تحمل تجارة يقدر ثمنها بخمسين ألف دينار .

إن قريشاً قد صادرت أموال المهاجرين من مكة ، وما زالت تمعن في تعذيب

(١) الآية ٤٥ سورة الأنفال .

(٢) الآيتان ١٥ و ١٦ سورة الأنفال .

المسلمين الذين لم يستطيعوا اهجرة . فكان لابد من معاملتهم بائس : حتى يرتدعوا
وتخف وطأتهم على المستضعفين من المسلمين .

وكان على القافلة أبو سفيان وأربعون رجلا ، فما إن علم قبل وصولهم إلى المدينة
بمخروج المسلمين للقائهم ، حتى بعث رجلا يستنفر أهل مكة لحماية تجارهم ،
فتداعى الناس من كل مكان حتى لم يبق في مكة قادر على القتال إلا حمل
سلاحه ، وانطلقوا يقودهم أبو جهل لملاقاة محمد وأصحابه . .

وتحول ميزان الموقف . . إن محمداً ﷺ وأصحابه خرجوا يتعرضون لتجارة
قريش وهم بضعة عشر وثلاثمائة ، وقد أمدت قريش أبا سفيان بألف مقاتل ،
واستشار محمد ﷺ أصحابه .

فقال المقداد بن عمرو ، وهو من المهاجرين : يا رسول الله ، امض لما أراك الله
فنحن معك . . والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك
فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .
ولكن الرسول ﷺ لا يريد رأى المهاجرين وحدهم ، إنه يريد رأى
الأنصار . ذلك أن المعاهدة التي عقدت بينه وبينهم ليلة « العقبة » التزموا فيها
بالدفاع عن الرسول ﷺ وحايته وهو بينهم بالمدينة . إما أن يخرج إلى « بدر » أو
غيرها لقتال قريش فذلك ما لم تتضمنه البيعة أو يؤخذ عليه العهد .

ولهذا حرص الرسول ﷺ على أن يسمع رأى الأنصار في لقاء قريش . ولم
يكتف بما أجاب به المقداد بن عمرو ، فأعاد السؤال وهو يقول : أشيروا على أيها
الناس .

فالتفت سعد بن معاذ زعيم الأنصار إلى الرسول ﷺ يقول : لكأنك تريدنا

يا رسول الله ؟

قال : أجل .

قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لكُصبرٌ في الحرب صدقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك . فسر على بركة الله . وبذلك حسم ما قاله المقداد بن عمرو وسعد بن معاذ ، الموقف في وجه من أراد أن يتعلل بأنهم إنما خرجوا لمصادرة التجارة وعليها أربعون رجلاً ، لا لقتال قريش وقد وجهت إليهم ألف مقاتل .

وكانت غزوة بدر الكبرى انتصاراً رائعاً في أول جولة بين المسلمين والمشركين ، برغم عدم التكافؤ بينهما في العدة والعدد .

ونعود إلى غزوة الخندق ، لنشهد صورة قريبة من الشورى والرجوع إلى ممثلي الشعب قبل توقيع اتفاقية سلام بين الرسول ﷺ وفريق من الأحزاب . وذلك حين أجهد الحصار المسلمين ، واشتدت ضراوة العرب واليهود في التآمر عليهم والغدر بهم ومحاولة القضاء عليهم ، فأراد الرسول ﷺ أن يرفع عن المسلمين هذا البلاء بمصالحة « غطفان » على أن يرجعوا عنه ولهم ثلث ثمار المدينة . وقبلت غطفان المصالحة ، ولم يبق إلا توقيع المعاهدة .

وهنا رجع الرسول ﷺ إلى أصحاب الحق الأول ، فعرض الأمر على الأنصار فكان جوابهم ما قاله سعد بن معاذ وسعد بن عباد . ونزل الرسول ﷺ على رأي الأنصار .

(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) (١) .

(١) الآية ٢٥ سورة الأحزاب .

من أخلاقيات الحرب

والإسلام يقيد الحرب ورد العدوان بالعدل والتقوى .
يقول الله تبارك وتعالى :

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (١) .

(فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (٢) .

والتقوى هي الترام حدود الله فلا بنى ولا اسراف . ورعاية حرمة الدماء

(١) الآية ١٩٠ سورة البقرة .

(٢) الآية ١٩٤ سورة البقرة .

والأعراف والكرامة الإنسانية . فلا اغتيال بغير موجهة . ولا تمثيل بجنحة قميل .
ولا إهدار لدم أسير . وعدم المعاملة بالمثل في انتهاك الحرمات . . فإذا اعتدى العدو
على الأعراف فلا يكون ذلك مبرراً لانتهاك أعرافه . ولكنها الحرب الشريفة
يخوضها المسلمون باسم الله . ولا يضرهم بغى عدوهم وإنما بغية على نفسه . والله
- تبارك وتعالى - حين يقول :

(وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

إنما يذكر بحقيقة مؤكدة وهي أن النصر من عند الله . وأن تحقيق هذا النصر
لا يكون إلا على قاعدة :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) (١) .

وذلك بالجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته والتزام حدوده .
والإسلام يقرر الإنذار والمواجهة في الحرب قبل بدء الهجوم ، ويحرم المباغتة
والخدر وذلك حتى يعطى العدو فرصة الاستعداد للقتال ، فذلك قوله تعالى :
(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) (٢) .

وهو ينكر غزو العدو قبل تخييره إما بعقد معاهدة لمنع عدوانه ، أو باعتناق
الإسلام إن أرادوا ذلك . لأن هدفه من القتال ليس مجرد الغزو والتسلط ، ولكن
منع العدوان وتأمين الحدود وحماية الدعوة .

ولقد خالف قتبية بن مسلم ذلك في إحدى الغزوات التي امتدت حتى أوشكت

(١) الآية ٧ سورة محمد .

(٢) الآية ٥٨ سورة الأنفال .

أن تبغ الصين ، دخل صفد ، من إقليم سمرقند ، دون أن يخبر أهله . كما تقرر سياسة الإسلام في الحرب - فشكوه إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فقضى بأن يتسحب جيش المسلمين من صفد إلى موقعه الذي كان خارجها ثم يخبر أهلها بين الإسلام أو المعاهدة أو الحرب . ونسحب الجيش لتتصر لم يكرهه أحد على ذلك إلا وفاؤه هذه المبادئ الشريفة .

فماذا كان موقف أهل صفد ؟ إنهم لم يغتتموا الفرصة بمعاهدة العرب على عدم الاعتداء مع بقائهم على دينهم فحسب ، ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فدخلوا في دين الله عن طواعية واختيار ، بعد أن رأوا من مبادئ هذا الدين في الحرب ، ما لا يوجد عند كثيرين غيرهم حتى في عهد السلام . وقد حدد عمر بن الخطاب في وصيته إلى جيش المسلمين بقيادة سعد ابن أبي وقاص الدستور الأخلاقي للمحاربين ، والعلاقة الوثيقة بين تقوى الله والنصر على الأعداء فقال :

« أما بعد ياسعد ، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإنها أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه ، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، وإلا تنصر عليهم بفضلنا وديننا لم نغلبهم بقوتنا . اعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيله ، لا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، قرب قوم سلط عليهم من هم شر منهم ، كما سلط الله على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار الجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . اسألوا الله العون على أنفسكم قبل أن تسألوه العون على أعدائكم . »

أما سياسة الحرب في شأن الأسرى ، فإن الإسلام قرر ضم حقوقاً تمثل أسس صور العدل والعفو عند المقدرة . والتجرد من شهوة الثأر والانتقام ، ورعاية الأخوة والكرامة الإنسانية . . .

المن على الأسير بإطلاق سراحه لوجه الله ، أو إطلاق سراحه مقابل فدية مالية أو مقابل أسير مسلم يطلقه العدو . . . طريقان لا ثالث لهما في معاملة الأسرى من الأعداء ، يقول الله . تبارك تعالي :

(فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) (١) .

فالإسلام لا يجيز قتل الأسير أو تعذيبه أو استرقاقه ، لكن يفرض حمايته ورعايته والإحسان إليه : يقول الرسول ﷺ « استوصوا بالأسارى خيراً » . ويقول : « لا يعترض أحدكم أسير أخيه ويقتله » . ويقول الله تبارك وتعالى :

(وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ ، لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا) (٢) .

وأسر صلاح الدين الأيوبي عددًا كبيرًا من الصليبيين ، فلما لم يجد عنده ما يكفيهم من الطعام أطلق سراحهم . يقابل هذه الصورة عند الصليبيين أن « ريكارد » قتل صبرًا ثلاثة آلاف أسير عربي بعد أن أعطاهم الأمان .

وحين عاد الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق ، كان من بين الأسرى جويرية

(١) الآية ٤ سورة محمد .

(٢) الآيتان ٨ و ٩ سورة الإنسان .

بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه . فلما قدم أبوها ليفديها شهد من آيات النبوة ما أقنعه بإعلان إسلامه : ثم خطب الرسول جويرية من أيها فزوجها له . وما علم المسنون بذلك حتى قالوا : إن أصهار رسول الله لا يُسْتَرْقُونَ .

وأطلق المسلمون من بأيديهم من أسرى بني المصطلق وكانوا مائة من الرجال والنساء . قالت عائشة : فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها . وفي غزوة حنين بالطائف كان عدد الأسرى من هوازن وثقيف ستة آلاف أسير . وأقبل شيخهم أبو صرد يقول :

« يا رسول الله ، إنما في الحظائر عاتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك .

يشير أبو صرد بذلك إلى رضاعة الرسول ﷺ في قبيلة بني سعد وهو طفل صغير .

فأعلن الرسول ﷺ بصوت عال :

أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

وما سمع المسلمون من المهاجرين والأنصار هذه الكلمة حتى قالوا جميعاً : وما كان لنا فهو لرسول الله .

وأطلقت هذه الكلمة سراح ستة آلاف أسير .

وأسلمت هوازن وثقيف !

وهناك صورة أخرى لسياسة الإسلام في شأن الأسرى .

حين اجتاحت التار البلاد الإسلامية ، وقع في أسرهم كثير من المسلمين وأهل الذمة من اليهود والنصارى . فلما دارت عليهم الدائرة في معارك الشام ، ثم اعتنق ملوكهم الإسلام ، طلب شيخ الإسلام ابن تيمية من « قطلوشاه » أمير التار أن يطلق سراح من تحت يده من الأسرى . فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له بأهل

الذمة . فكان رد ابن تيمية على أمير التتار أن قال :
لا بد من افتكاك جميع من معك من يهود والنصرى الذين هم أهل ذمتنا ،
ولاندع أسيراً من المسلمين ولا من أهل الذمة .

فأطلق أمير التتار جميع هؤلاء الأسرى على السواء .
جاء ذلك - والشىء بالشىء يذكر - فى الرسالة القبرصية ، التى بعث بها ابن
تيمية إلى « سرجوان » أحد ملوك الصليبيين ، يطلب منه « افتكاك » من بيده من
أسرى المسلمين ، ويذكره بموقف الدولة الإسلامية من أهل الذمة الذين أسره
التتار .

وتبلغ سياسة الحرب فى الإسلام قمة الساحة فى موقف الرسول ﷺ عند فتح
مكة ، وقد مكنه الله من رقاب قريش ، وعاد الذين أخرجوا من ديارهم أقوياء
منتصرين .

إن أحد قواد الجيش الإسلامى يقول وهو يدخل مكة : اليوم يوم الملاحمة ،
اليوم تستحل الحرمه .

وتبلغ هذه الكلمة الرسول ﷺ فيغضب ويقول : اليوم يوم المرحمة ، ويأمر
بعزل هذا القائد .

ويدخل الرسول ﷺ مكة فى عشرة آلاف مقاتل ، وكان يركب على ناقته وهو
مطأطئ الرأس تواضعاً لله وإشعاراً بحرمه بلده الحرام .

ثم يقوم على باب الكعبة فيقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق
وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وينظر إلى قريش وقد تابعت فى هذه اللحظات تلك الصور الدامية والمواقف
الرهيبه التى كانت بينهم وبين محمد وأصحابه ، فيقول لهم : ما ترون أنى فاعل

بكم ؟

قائلا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .
قال : اذهبوا فانتم الطلقاء .

إنه لم يحكم في رقابهم السيف ، ولم يأخذهم أسرى ، ولم يصادر أموالهم ، ولم يشترط عليهم لذلك أن يعلنوا إسلامهم . ولكنه جعلهم أحرارا طلقاء ، آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

صورة ليس لها مثيل في تاريخ الحروب بين قائد منتصر وأعداء مغلوبين . فلم يلبث الناس أن دخلوا في دين الله أفواجا ، وكانوا في الطليعة المؤمنة التي انطلقت لإعلاء كلمة الله ونشر دعوته في مختلف أرجاء الأرض .

وبعد ، فهذه جوانب أساسية من سياسة الحرب في الإسلام ، قاطعة الدلالة على البواعث والأهداف الإنسانية لشريعة الإسلام في الحرب ، حماية لعقيدة المؤمنين من المسلمين وأهل الذمة على السواء . ودفعاً للنظلم والعدوان ، وقضاء على جبايرة الأرض الذين يستدلون الرقاب ، وعلى الأنظمة الفاسدة التي تشقى بها البشرية ، لإرساء لقواعد العدل والأمن والحرية . . . وهي شريعة لم تشهد الدنيا لها مثيلا في تاريخ الحروب ولا في تاريخ السلام .

العلم والإيمان

حين رفعت الدولة شعار « العلم والإيمان » كان ذلك تأكيداً لانتمائها الحضارى ، وإحياءاً لمقوماتها الأصيلة وتاريخها العريق ، منذ كان لها وجود على هذه الأرض ، وعلى امتداد حياة الأمة العربية والإسلامية عمقا واتساعا بين الأمم . على هذا الخط الواضح كانت مسيرتها ، لم تنحرف عنه أو تتخلف عن حمل رسالته وتحقيق أهدافه ، إلا في الفترات التي تتخلل حياة كل أمة حين يدب فيها الفساد من الداخل أو تقع تحت وطأة العدوان من الخارج ، ثم لا تلبث أن تستعيد قوتها الذاتية وتستمد من خصائصها العريقة ما تتحدى به عدوان العدو ، وتنبى عن نفسها عوامل الضعف والتخلف ، وتستأنف انطلاقها على الطريق .

والدولة وهي تمثل الصورة الكلية للسلطة في كل أمة ، لا بد أن تستمد وجودها من ضمير هذه الأمة . ومن هنا يكون مبلغ التوافق أو التمزق بين ضمير الأمة

ومقوماتها وبين الأنظمة التي تقوم عليها الدولة .

ولهذا كان العلم والإيمان هو النموذج المتكامل لقيام الدولة التي تتوفر لها كل مقومات القوة المادية والمعنوية ، والتي توفر للأمة حياة تتبنى فيها التناقضات إلى حد كبير ، ويتحقق التوازن المادي والمعنوي بين الدولة والأمة من جهة ، وبين أفراد الأمة بعضهم وبعض من جهة أخرى .

والحقيقة التي ينبغي التركيز عليها في هذا المقام ، هي أنه لا توجد أنظمة « جاهزة » للتطبيق في كل دولة ، بحيث تحدث أثرها الفوري وتوثق ثمارها وكأنها إنتاج صناعي مصبوب في قوالبه ، ولكنها سبادئ عامة تتفاعل مع الزمان والمكان ، ومع الفرد والمجتمع . وتختلف في قوة التأثير والتأثر بمقدار اختلافها - قريباً وبعيداً - مع قوانين الفطرة ونواميس الحياة .

وإذا استعرضنا تاريخ العلم والإيمان على هذه المنطقة العربية منذ أقدم العصور ، نجد أنه كان الصورة المتيزة والطابع الغالب ، الذي يتبدل في الرسائل السماوية الكبرى ، وفي الحضارات المتعاقبة والمتنوعة في كل مكان . كما نجد أن أقوى وأزهى فترات هذا التاريخ هي التي يتكامل فيها السلم والإيمان ، لأن كلا منهما يقوم على الآخر ، ويرتبط به ارتباط وجود وغاية .

فإذا انتقلنا إلى مناطق أخرى في العالم الفسيح على اختلاف الدول والشعوب ، وعلى تعاقب العصور والأجيال ، وتنوع الأنظمة العقائدية في الحكم والسياسة والاجتماع ، نجد أن البعد عن شعار « العلم والإيمان » فكراً وتطبيقاً ، إنما يرجع في الغالب الأعم إلى سوء الفهم أو سوء التطبيق أو غلبة النزعات المستبدة عند الأفراد والجماعات .

● سوء الفهم لطبيعة العلم والإيمان ، كليهما أو هما معاً .

● أو سوء التطبيق فيما كان يعرف بالحكومات الدينية وسلطان الكنيسة وبعض

صور الخلافة الإسلامية ، وفي الانحراف بالعلم وتسخير منجزاته نحو المهدم والدمار بدلا من تنمية المجتمع وإسعاد أفراده .

● أو غلبة النزعات المستبدة من وراء ذلك كله ، أو نتيجة لذلك كله .

ويمكن القول إن المجتمعات التي فصلت بين العلم والإيمان ، أو بين الدين والدولة ، إنما جاء ذلك نتيجة « رد فعل » تختلف قوة أو ضعفاً للواقع الذي عاناه هذا المجتمع أو ذلك ، وللرواسب التي أرهقت وجوده وضميره ، أو هروباً من مواجهة هذا الواقع التي تتعقد مشكلاته عند بعض الشعوب .

هناك الدولة العلمانية ، والدولة الدينية أو الحكومة الدينية .

نماذج من الأنظمة الدولية التي نشأت في بعض البيئات وأسبابها ومقوماتها ، فالدولة الدينية في التاريخ السياسي اقترنت بسلطة الكنيسة وما تمثله من سيطرة « لاهوتية » على المؤمنين ، انحرف بها بعض « الآباء » إلى استغلال الإنسان والحجر على فكره وحرية ، واقتناء الإقطاعيات والصيد ، ومخالفة الملوك والقيصرة الطغاة ضد الشعوب ، والمتاجرة بتذاكر الغفران . . حتى اشتعلت النفوس حقداً ومرارة ، وشاهدت صورة « الدين » في أعين الناس ، وكان شعار أشهر ثورتين في أوروبا دليلاً على ذلك :

● شعار الثورة الشيوعية : الدين أفيون الشعوب .

● وشعار الثورة الفرنسية : اشنئوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس !

هذه هي الدولة الدينية في التاموس السياسي والتاريخي الغربي ، وهو اصطلاح نبت في بيئات معينة ، وله مدلول معين ، ومن هنا نشأت فكرة فصل الدين عن الدولة . وليس الأمر كذلك في التاريخ العربي الإسلامي ، لأن نظام الحكم المستظل بمبادئ الدين على الأرض العربية لم يكن الحاكم فيه يدعى أنه يستمد

سلطة إلهية مطلقة ، ولكنها بيعة وطاعة يقبدها العبد وحمل المسؤولية بالأمانة التواجبية وإلا فلا سمع ولا طاعة .

حين تولى أبو بكر الخلافة الأولى في الإسلام قال في أول خطبة له :
« أيها الناس : قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن صدقت^(١) فقوموني . . . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم »

وقيل مرة لأبي بكر : يا خليفة الله .

فاستنكر ذلك وقال : لست بخليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله .
وتال عمر عندما تولى الخلافة : من رأى منكم ثقيلاً فليقرمه !
فقال أعرابي : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيفنا .
ودخل أبو مسلم الخولاني على معاوية فقال : السلام عليك أيها الأجير !
فقال من عنده : قل السلام عليك أيها الأمير .
فتراب : السلام عليك أيها الأجير .

قالوا : قل الأمير !

فقال معاوية : دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول .
قال أبو مسلم : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها ، فإن فعلت وفاق سيدك أجرك ، وإلا عاقبك سيدها^(٢) .

(١) ملت عن الحق .

(٢) اختصرنا العبارة ونصها كالآتي : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها .
فإن أنت هنأت جرباها (دهنتها بالقطران) وداويت مرضاها ، وحبست أولاها على أخرها وفاق سيدك أجرك . وإن أنت لم تهنأ جرباها ولم تداو مرضاها ولم تعبس أولها على أخرها عاقبك سيدها .

وفي معنى المسئولية تقول أمير المؤمنين : لو عثرت بغلة بأقصى العراق لأذنتني عسر
وهو بالذينة أن يسأل : لماذا لم يعبد لها الطريق ؟ !

أما الدولة العلمانية فإنها وُجِدت كذلك في بعض المجتمعات إنقاذاً لها من
الميراث الخائض لسلاطين الكنيسة في العصور الوسطى ، ومن التمزقات النسبية
والفكرية التي كانت نتيجة غلبة الوثنية اليونانية والرومانية على الفكر المسيحي
والتقاليد المسيحية في أوروبا ، مما باعد بينها وبين المسيحية في صورتها الحقيقية ، كما
وجد البعض الآخر من الدول الآسيوية في علمانية الدولة مهرباً من تعدد الديانات
والدعوات ، وتناقضاتها الحادة ، ويحظر هذا التعدد على الأمن والوحدة الوطنية .

وليس في التاريخ السياسي والديني لهذه الأمة ، وخاصة في الفترات التي كان
فيها الدين والدولة سياج المجتمع وقوام الحياة فيه ، هذه الصورة المشوهة التي
أُلجأت تلك المجتمعات للتكسر للدين وفصل الدين عن الدولة ، فوَقَعَتْ فيما هو شر
وأثكى من تلك الحياة الكريمة المتكثرة .

• • •

إن تاريخ مصر والعروبة منذ ميلاد البشرية على هذه الأرض كان هو تاريخ
الدين . وعلى ثراها الطيب شطرت أقدام إبراهيم وموسى وعيسى وأمه العذراء
البتول . ومن شعبها المؤمن كانت « هاجر » أم إسماعيل وكان أصهار محمد ﷺ
خاتم الأنبياء والمرسلين . وفي سبيل إعلاء كلمة الله والثبات على العقيدة كان
الشهداء الأبرار من أتباع المسيح - عليه السلام - وفي صد أعداء الإنسانية خرجت
الجيش المصرية توقف الطوفان المدمر لجحافل المغول وتردهم على أعقابهم
خاسرين . وفي سبيل حماية المقدسات الدينية والوطنية كان اندحار الاستعمار
الصلبي ، وفي الثورة ضد الاستعمار البريطاني كانت الوحدة الوطنية على أروع

صورة ، وكانت الكنائس والمساجد معاقل يبادن منابرها القسيس والشيوخ ، وفي معركة رمضان انجيدة كان هتاف النصر : الله أكبر !

إن مصر والأمة العربية وقد انتصرت في معركة تحقيق الذات ، قد تجاوزت المرحلة التي تفتتها فيها الشعارات المجلوبة ، أو تصرفها عن أصلاتها وشريرتها وضرورة الاجتهاد فيها والمتقين لها بما استجد من مشكلات العصر ، سهولة استيراد الأفكار « الجاهزة » أو الانزلاق في تطبيقات ليس لها في التاريخ الإسلامي أو الواقع العربي جذور .

وإذا كان من أخطر ، ا تعاني الشعوب النامية هو أن يفرض عليها بصورة أو بأخرى أن تظل مجتمعات « استهلاكية » في أنماط الحياة ، فإن هذا الخطر يكون أشد أثرًا حين يراد بهذه الشعوب أن تكون مجتمعات استهلاكية في أنماط الفكر والعقيدة والحكم .

ونعود إلى دولة العلم والإيمان ، التي تقوم على شرعية الله في إطار منهج متكامل تنتفي في ظله أسباب التمزق الذي تعانيه مجتمعات تعزل الابين عن الدولة ، وتحصره في أضيق الحدود ، وتسلبه مقوماته وقاعليته في الحياة ، وتطلق الأهواء والشهوات بلا قيود ، وبذلك يتحول « العلم » وسائر نواحي النشاط الإنساني إلى وحوش ضارية وأدوات مدمرة لكيان الإنسان وسلامة المجتمع . كما تنتفي في ظل هذا المنهج أسباب ضياع الذات الذي تعانيه مجتمعات أخرى أنكرت الدين جملة وتفصيلا ، وبقدر ما وفرت للإنسان حاجته من الطعام حرمة من معاني وجوده النابعة من قوانين فطرته ، وإن حاولت أن تعوضه عن هذا الحرمان بألوان من الفنون والهوايات .

والدولة التي تقوم على العلم والإيمان ، تعرف للعلم قدره وأشميته ، فهي تأخذ بأسبابه وتعيش في رحابه ، لا ترضى بالتخلف في عصر يحاول أن يجاوز

الأرض إلى آفاق الفضاء . وهى فى الوقت نفسه تبتغى وجه الله فيما تحاول من تطبيقات وما تحقق فى مجال العلوم من انتصارات ، فلا يكون هدفها السيطرة والاستغلال وتجارة الحروب ، ولكن تحقيق الخير وإشاعة الأمن وتوفير الرفاهية للإنسان ، ولناخذ مثلا لذلك تفجير الذرة وغزو الفضاء .

● لو أن العلم والإيمان - وليس العلم وحده - هما أساس الحياة فى الدول « النووية » لانهصر تفجير الذرة واستخدامها فى مجالات علاج الأمراض واستصلاح الصحارى وتوفير الإنتاج ، والقضاء على مشكلات الجوع والمرض والتخلف بين بلايين البشر فى مختلف أنحاء الأرض ، ولم ينعصر استخدام هذا السلاح العلمى فى مجال الحروب وإرهاب الشعوب .

● وكذلك الأمر بالنسبة لغزو الفضاء . . . ما هى الدوافع التى تحركه والأهداف التى تشد إليها الأفكار والجهود ؟

وهل فرغت البشرية من استخدام المنجزات العلمية على وجه الأرض بما يحقق التقدم والرخاء ، فهى تلمس لها مجالات أخرى لخدمة البشرية على أبواب السماء ؟

أم أنه سباق مجنون مجرد من « الإيمان » لم يكفه ما أحدثه على ظهر البسيطة من فتن ودمار وإهدار للأمن والأمان ، فهو يحاول أن ينتقل بميدانه إلى أجواز الفضاء ؟ !

إنه لا عاصم من هذه الأخطار التى تتهدد مستقبل البشرية على هذه الأرض ، إلا بانتصار القيم الدينية وسيطرة سلطان العلم والإيمان . وهذه مسئولية تكاد تلقى قيادها إلى الأمة العربية والإسلامية من جديد ، بعد أن أوشكت حضارة الغرب المادية على الأفول والانحيار .

التطور والقيم الدينية

المجتمعات الإنسانية في تطور دائم ، فهي لا تثبت على صورة واحدة ، ولا تجمد على وضع معين ، ولكنها تتطور من حال إلى حال وتأخذ أشكالاً مختلفة في أساليب الحياة ووسائل المعيشة وطرائق التفكير .

فما هو موقف القيم الدينية من هذا التطور المستمر ؟ .

وهل تستطيع هذه القيم أن تجارى الحياة في تطورها ، وأن تلبى حاجات

المجتمع المتغيرة من حال إلى حال ؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال ، لابد من وقفة عند معنى التطور والثبات .

إن الوجود بما فيه من مختلف الكائنات ، تحكمه قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل .

فهذه الأفلاك في حركتها الدائبة ، وهذه الكائنات الحية من إنسان وحيوان

ونبات ، تقوم على نظام ثابت وقواعد محكمة ولكل منها قانونه الذى يخضع له

ويسير عليه .

بلايين الكواكب والنجوم التي تسبح في الكون ، لكل منها مدارها الذي لا تحيد عنه ، وبجملها المغناطيسي الذي لا تتجاوزه .

الإنسان الذي يبدأ تكوينه من خلية واحدة ، فإذا هذه الخلية تتحول إلى جسم متعدد العناصر من لحم وعظم وغضاريف ودماء ، متعدد الأجهزة من قلب وورثة ومعدة وعين وأذن وأعصاب ، متنوع المشاعر من شجاعة وخوف ، من كرم وبخل ، من حب وكراهية . . . إلى غير ذلك من الأضداد .

عالم النحل بما فيه من تخصص عجيب في العمل حيث تقوم كل نحلة بعمل معين ، وبما فيه من هندسة عجيبة في بناء البيوت التي تتكون من عدة غرف مسدسة الأضلاع .

النبات الذي تلقى بذوره في أرض واحدة ، ويُسقى بماء واحد ، ثم يخرج بعد ذلك مختلف الأنواع والألوان والرائحة والطعم .

هذه الكائنات جميعها تحكمها قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، ومنها الإنسان الذي تحكمه قوانين في خلقه وتكوينه ، كما يرتبط بقوانين أخرى في حياته الاجتماعية ، هي القيم الدينية ، التي لا تتغير ولا تتبدل لأنها تتصل بفطرة الإنسان ومعنى وجوده في هذه الحياة .

ومن هنا كان معنى الثبات في القوانين الكونية بالنسبة للكائنات ، وفي القيم الدينية بالنسبة للإنسان ،

وإذا كان ثبات القوانين الكونية لا يعتبر جموداً يعوق حركة الكائنات في الكون ، ولكنه ضرورة تنظم وجود هذه الكائنات ومسيرتها . فكذلك القيم الدينية في حياة الفرد والمجتمع .

ولننظر في هذه القيم الدينية كيف أنها ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، مها تطورت

حياة الإنسان واختلفت أساليب تفكيره ومعيشته .

إن الدين في جوهره تنظيم للصلة بين الإنسان وربه خالق الكون والحياة ، وتنظيم للصلة بين الإنسان والمجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك على أسس مترابطة لا ينفصل أحدهما عن الآخر . فهو حين يقوم على الإيمان بإله واحد متفرد بكمالات الصفات ، إنما يجرد البشر في الوقت نفسه من دعوى الألوهية والاستعلاء والسيطرة ، ويبطل مزاعم الذين يرون لأنفسهم حقوقاً مقدسة أو غير مقدسة على غيرهم من الناس ، ويضع الجميع على مستوى واحد في الحقوق والواجبات ، ثم لا يبقى لأحدهم فضل على الآخر إلا بما يقدم من عمل صالح يفيد الفرد أو المجتمع .

والدين حين يقرر مبدأ الجزاء وَيَعِدُّ بِالثواب والعقاب ، يقرر كذلك أن الله تبارك وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه ، وإنما هي حوافر وزواجر تتصل بالفطرة الإنسانية لتبلغ بالفرد والمجتمع الغاية من وجوده في هذه الحياة .

والدين حين يقرر حتمية البعث والنشور ، إنما يقضى على فكرة «العدم» التى تُفَرِّقُ الإنسان في الشعور بالضياع والتفاهة ، وتقتل فيه معنى وجوده ، وتدفعه إلى اليأس والكآبة التى تحطم حياته ، أو الاستغراق المجنون في الفردية وانتهاب الملذات ، وبذلك يعطى الدين للحياة قيمتها ، ويرسم للإنسان رسالته في هذه الحياة ، ويربطه بأهداف سامية تبعث في نفسه معنى الخلود .

وعقيدة الإيمان بالله ، لا تستطيع الإنسانية أن تستغنى عنها في أى عصر من العصور ، ولا في أى مجتمع من المجتمعات ، لأن هذه العقيدة مرتبطة بالفطرة الإنسانية . وما يحدث لهذه العقيدة من قوة أو ضعف ، من استقامة أو انحراف ، إنما ينشأ نتيجة التوافق مع الفطرة الإنسانية أو التناقض معها في الفكر والانجاء .

فالفطرة الإنسانية تؤمن بوجود الله مبدع هذا الكون ، له الأسماء الحسنى ،
وحده لا شريك له ، ولا معبود بحق سواه . فإذا انحرف الإنسان عن فطرته ،
لا يستطيع حتى مع انحرافه أن يتخلى عن فكرة الإله المعبود ، ولكنه يخطئ في
تصور هذا الإله والتعبد له . ولهذا الانحراف عن الفطرة الإنسانية وما يؤدي إليه من
خطأ التصور والعبادة صوراً كثيرة .

فمن الناس من يعبد الأصنام ، أو يقدر بعض الحيوان .
ومنهم من يعبد البشر من الملوك والزرعماء ، أو من الأحرار والرهبان
والمسالمين .

(اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ ^(١) وَرُدَّيَانَهُمْ رَبَّابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) ^(٢) .

ومن هؤلاء الأحرار من تعتبر آراؤهم ونظرياتهم عند أتباعهم في بعض
الاجتمعات المعاصرة « دينا » له قداسة الدين المنزل من السماء .
ومن الناس من يعبد المال ، أو الشهوات والأهواء :

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ،
وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً) ^(٣) .

إن الإنسان حين ينحرف عن فطرته ، لا يستطيع أن يعيش في فراغ عقائدى ،
فهو يشغل هذا الفراغ ويلبى نداء الفطرة بتصور الإله على صورة ما . سواء كان على
خطأ في هذا التصور أو على صواب .

(١) علماءهم .

(٢) الآية ٣١ سورة التوبة .

(٣) الآية ٢٣ سورة الجاثية .

والقيم الدينية التي تنظم حياة الفرد وجماعة . في صفة ثابتة ولا مستقر
وتدوم . لأنها تتصل بانقضاء الإنسانية التي لا تتغير ولا تتبدل :

(. . . فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا : لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (١)

إن رعاية حقوق الوالدين مثلا ، من القيم الدينية التي لا تتبدل ولا تتغير . فهي
تطورت حياة الإنسان واختلقت صور المجتمع :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا
يُبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ
وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْتِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ
مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا) (٢)

وكذلك المساواة بين البشر دون النظر إلى الجنس أو اللون أو الغنى أو الفقر ،
وتقويم كل امرئ بما يحسنه لا بما يدعيه من حسب ونسب وثروة وجاه ، وإقامة
العدل ، والإحسان في القول والعمل : والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى ، هذه
المبادئ العامة وغيرها مما يشكل الصورة الكلية للدين ، لا يمكن أن تتغير موازينها
أو تتبدل آثارها على اختلاف الزمان والمكان ، لأنها حقائق ثابتة وقيم خالدة ، كما
لا يمكن أن تتغير أو تتبدل مسيرة الأفلak وسنن الطبيعة في الكون والحياة .
وإنما يجرى التغيير والتبديل داخل إطار هذه الصورة الكلية للقيم الدينية ،

(١) الآية ٣٠ سورة الروم .

(٢) الآيات ٢٣ و ٢٤ سورة الإسراء .

وانطلاقاً منها لمواجهة تطور الحياة وتجدد صورها ، وقد كفلت هذه القيم الدينية تلبية سمحة لكل حاجات البشر ، واستجابة غير محدودة لكل تطلعات الفكر الإنساني .

بل إن القيم الدينية فيما احتوته من مبادئ عامة ، حثت الإنسان على أن يستمتع بزينة الحياة وألا ينسى نصيبه من الدنيا ، وأن يجاهد في عمارة الأرض التي استخلفه الله فيها ، ولم يقيد الدين ذلك إلا بالحدود التي تحمي الفرد والمجتمع من غوائل الإسراف والبغى . كما أن الدين في مجال الفكر أطلق حوافز الإنسان للنظر في ملكوت السموات والأرض ، وأثار أشواقه للكشف عن عالم الغيب في الطبيعة وما وراء الطبيعة .

والإنسان قد يتطور أسلوب تفكيره ، بما يكتسب من تجارب العلم والمعرفة ، وللدين في هذا قيمه التي تحث على احترام العقل والتفكير في ملكوت السموات والأرض ، وقد يتطور أسلوب حياته من البداوة إلى الحضارة ، وللدين في هذا أيضاً توجيهه إلى أن الله سخر للإنسان ما في الأرض جميعاً .

فهل هذا التطور في أساليب التفكير والحياة ، يستدعى بالضرورة تغييراً وتبديلاً في القيم الدينية الثابتة ، أو الانصراف عنها إلى قيم أخرى تحمل محلها وتشغل ما تخلفه من فراغ ؟ . . .

إن التطور العلمي في الوصول إلى القمر ، لم يقتض الخروج على قوانين الطبيعة الثابتة ، ولكن هذا التطور تم من خلال هذه القوانين التي جعلت لكل من الأرض والقمر منطقة جذب محددة أبعادها ، فإذا انطلق الإنسان بمركبته وتجاوز منطقة الجاذبية الأرضية ، يظل في اتجاهه البعيد حتى يصل إلى منطقة الجاذبية الأخرى التي تقوده إلى الهبوط على القمر بسلام .

وكذلك التطور الذي يحققه الإنسان في حياته ، لا يستدعى بالضرورة الخروج

على القيم الدينية ، أو إبدالها بقيم أخرى غيرها ، لأنه إنما يحقق هذا التطور من خلال ما تدعو إليه هذه القيم التي تستهدف تحقيق معنى وجود الإنسان في هذه الحياة .

لماذا إذن نشأ الصراع في بعض العصور ، وفي بعض المجتمعات ، بين الدين والعلم وبين الدين والحياة ؟ .

الحقيقة أن الصراع لم ينشأ على هذه الصورة . ولم يكن هناك صراع بين الدين والعلم ، ولا بين الدين والحياة ، لأنه لا تعارض بين الدين وبين العلم والحياة . وإنما نشأ الصراع في أوروبا ، في العصور الوسطى ، بين رؤساء الدين ، وبين الرواد من علماء الفلك والجغرافيا . حين اصطدمت الكشوف العلمية لهؤلاء الرواد ، بما لهؤلاء الرؤساء وغيرهم من تفسيرات للكون والحياة .

من هؤلاء الرواد « نيقولا كوبرنيكوس » الذي أعلن نظرية تعتبر اليوم من البديهيات ، ولكنها أثارت في ذلك الوقت عاصفة من الإنكار الشديد ، وهي أن الشمس لا تدور حول الأرض ، ولكن الأرض ومعها الكواكب السيارة هي التي تدور حول الشمس .

ولولا أن « كوبرنيكوس » توفي بعد ساعات من صدور كتابه الذي ضمنه هذه الحقيقة العلمية ، لما نجا من العقاب الأليم الذي تعرض له من جاء بعده من العلماء ^(١) .

ومن هؤلاء « غاليليو » الذي تابع جهود سلفه وأثبت نظرية دوران الأرض ، فقاده ذلك إلى الوقوف أمام محكمة التفتيش في روما ، ليحاكم بتهمة الكفر والإلحاد ، ويلقى من أجل ذلك السجن والتعذيب والإهانة والمصادرة ، ثم يموت

(١) كتاب تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم ، تأليف إسماعيل مظهر .

بعد ذلك شيخاً محطماً . محروماً حتى من الصلاة على جثمانه ، منبوذاً بعيداً عن أهله ومواطنيه .

ولقد ظل الصراع محتدماً بين آباء الكنيسة والعلماء عدة قرون حول هذه الحقائق وغيرها من الكشوف العلمية ، وحول مصادرة حرية الفكر باسم الدين ، الأمر الذى أحدث فجوة كبيرة بين التصور الدينى للكون والحياة كما يريد أن يفرضه رؤساء الدين هناك ، وبين الحقائق العلمية التى غزت العقول وأصبحت من القضايا المسلم بها فى منطق العقل والواقع .

ومن هنا اهتزت الصورة الدينية فى الغرب ، وانحسر سلطان الدين عن مكانه الطبيعى فى النفوس ، وأصبح عند القلة المتدينة طقوساً يؤدونها دقائق كل أسبوع . هذا فى الغرب ، فماذا فى الشرق ؟

إن الأمر قريب من ذلك . فالدين فى جوهره برىء مما ألصق به فى تلك المجتمعات . لقد حكموا على الدين من خلال مواقف بعض المنتسبين إليه ، ومن خلال الصور التى انخرقت بالناس عن حقيقة الدين وقيمه وأهدافه ، حتى قال بعضهم إنه « أفيون » الشعوب . لأن الدين بتلك الصورة كان مسخراً ندعم سلطان القياصرة ، وفرض العبودية والاستغلال على الجماهير ، وصرفهم عن الجهاد لاسترداد حقوقهم وكرامتهم وبناء مجتمعهم على أساس من الكفاية والعدل .

وللفيلسوف برتراند راسل رأى يؤكد عمق الشعور الدينى وارتباطه بالفطرة الإنسانية ، حتى عند أصحاب المذاهب المادية . ويرى أن هناك رباطاً خفياً لا يمكن التخلص منه عند هؤلاء . يبدو ذلك واضحاً فى المقارنة بين الفكر اليهودى والفكر المسيحى والفكر الماركسى ، بل والفكر النازى .

وهو يضع لبيان ذلك قاموساً فى تفسير بعض الألفاظ ذات الدلالة الدينية والماركسية فىقول :

- يهواه = المادية نديانكبيكية .
- المسيح = ماركس .
- الأخيار = سواد الشعب
- الكنيسة = الحزب الشيوعى .
- الظهور الثانى = الثورة .
- جهنم = عقاب الرأسمالية .
- النعيم الموعود (الجنة) = الدولة الشيوعية الواحدة^(١) .

وهذه حجة للدين على منكريه ، ودليل على أصالة الفكر الدينى وامتداد أثره واستمرار قانونه فى الحياة ، وإن خالطه الانحراف عن الجادة وسوء الفهم للصورة الحقيقية للدين .

وتلك هى أزمة الدين فى المجتمعات التى انحسرت فيها القيم الدينية عن واقع الحياة . وهى أزمة لا تقوم على تعارض بين القيم الدينية والتطور ، ولكنها تقوم على موارد فكرية واجتماعية استقرت هناك ، نتيجة الصراع المزعوم بين الدين والعلم ، أو بين الدين والحياة .

وليس الأمر كذلك بالنسبة للمجتمع العربى . والإسلامى ، وموارثه من القيم الدينية الأصيلة

(١) كتاب تاريخ الفلسفة الغربية ، تأليف برتراند راسل . ترجمة الدكتور : زكى نجيب

محمود . الجزء الثانى . صفحة (٩٦) .

المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - كتب السنة .
- ٣ - سيرة النبي : لابن هشام .
- ٤ - نهج البلاغة : للإمام علي بن أبي طالب .
- ٥ - العظيمة : لابن سناء .
- ٦ - سير أعلام النبلاء : شمس الدين الذهبي .
- ٧ - عمر بن عبد العزيز : لابن كثير .
- ٨ - إحياء علوم الدين : للإمام الغزالي .
- ٩ - الحسبة في الإسلام : للإمام ابن تيمية .
- ١٠ - الرسالة القبرصية : للإمام ابن تيمية .
- ١١ - العلم يدعو للإيمان : أ . كريسي موريسون * ترجمة محمود صالح الفلكي .
- ١٢ - مع الله في السماء : الدكتور أحمد زكي .
- ١٣ - أصوات لا تسمع : ب . قدر يافستف - ترجمة د . سيد رمضان هدارة .
- ١٤ - الإنسان ذلك المجهول : الكسيس كاريل - ترجمة شفيق أسعد فريد .
- ١٥ - تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم : إسماعيل مظهر .
- ١٦ - تاريخ الفلسفة الغربية : برتراند راسل - ترجمة د . زكي نجيب محمود .
- ١٧ - ليبيك . . . (طبعة اقرأ) : محمد كامل حنة .
- ١٨ - شهر القرآن : محمد كامل حنة .